الفصل الثالث

لكي نكون معاصرين حقاً

- ماذا تعني المعاصرة؟

١. ضرورة معرفة العصر.

٢. العلم والتكنولوجيا.

٣. النظرة المستقبلية.

أصناف الناس أمام الماضي والمستقبل.

التعلق بالنموذج النبوي والصحابي.

٤. العناية بحقوق الإنسان.

obeikandl.com

obeikandl.com

ماذا تعني المعاصرة ؟

يراد بالمعاصرة : أن يعيش الإنسان في عصره وزمانه ، في أفكاره وقيمه وسلوكياته ، في انتصاراته وهزائمه ، في معمعة أحداثه ، ومع أهله الأحياء المتحركين ، يفكر كما يفكرون ، ويعمل كما يعملون . لا يعيش في عصر مضى بما يحمل من تصورات وعقائد ، ومن قيم ومفاهيم ، ومن أخلاق وتقاليد ، ومن شعائر وشرائع ، قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون .

جوهر المعاصرة ـــ إذن ـــ هو معايشة الأحياء لا الأموات ، والواقع الماثل لا الماضي الزائل . ولهذا مظاهره ودلائله ، التي تقتضيها المعاصرة .

وهذا الإجمال له تفصيل ، نبين عنه في هذا الفصل .

١ـ ضرورة معرفة العصر

أول دلائل «المعاصرة» أو مقوِّماتها : أن نعرف «العصر» الذي نعيش فيه معرفة دقيقة وصادقة ، فإن الجهل بالعصر ، أو معرفته على غير حقيقته يفضي إلى عواقب وخيمة ، كالطبيب الذي يصف دواءً جيداً ، ولكنه قد يقتل مريضه أو يضاعف عليه سقمه ، إذ لم «يُشخِّص» داءه تشخيصاً دقيقاً ، أي لم يعرفه كما ينبغي .

إن بعض الكُتّاب اللامعين في عالَمنا العربي والإسلامي ، يتحدثون عن التفكير المادي وكأنهم في القرن الثامن عشر ، مغفلاً الاتجاهات الإيمانية التي برزت لدى الكثيرين من علماء ومفكري القرن العشرين[١] .

ومنهم مَن لا يزال يتشبث بالماركسية وقد سقطت قلاعها العملية ، وحتمياتها النظرية ، في مسقط رأسها ، وديار مجدها .

ومنهم مَن لا يبرح ينادي بالقومية ، وقد ذهبت ريحها منذ زمن بعيد ، وبات الناس يبحثون عن تكتلات أكبر وأرحب ، تحقق مصالحهم ، وتدرأ أخطار المنافسين عنهم .

ومنهم . . ومنهم . .

ولقد قال المستشار طارق البشري في حديثه عن «الإسلام

---

(١) انظر : في ذلك كتاب الأستاذ العقاد «عقائد المفكرين في القرن العشرين» ، وكتاب «الله يتجلى في عصر العلم» بأقلام ثلاثين عالِماً عصرياً ، كتب كل منهم مقالاً : كيف اهتدى إلى الله عن طريق تخصصه ، ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان ، ونشرته دار إحياء الكتب العربية ، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين . وانظر : كذلك : كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان» تأليف «أ . كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، ترجمة د . محمود صالح الفلكي ، وتقديم د . أحمد زكي ، والشيخ أحمد حسن الباقوري .

والعصر» : إن المشكلة ليست في جهلنا بالإسلام بل المشكلة في جهلنا بالعصر!

وهو يوجه كلامه إلى العلمانيين ودعاة التغريب والتحديث ، فهو يعيب عليهم عدم معرفتهم بالعصر الذي يتباهون بالانتماء إليه ، أكثر مما يعيب عليهم عدم معرفتهم بالإسلام ، فهذا مفروغ منه ، وهم لا يدّعونه لأنفسهم .

وإذا كان من دعاة التحديث مَن يجهل العصر ، فإن في دعاة الإسلام مَن هو أكثر جهلاً به ، لأنه يعيش في الماضي وحده ، ويسكن في صومعة التراث ، وقد أغلق عليه بابها ، فلا يكاد يرى أو يحسّ شيئاً مما حوله . ويا ليته يعيش في عصور التألق والازدهار . بل كثيراً ما يعيش في عصور التخلف والتراجع . فهو يفكر بعقولهم ، ويتحدث بلغتهم ، ويحيا في مشكلاتهم ، ويجيب عن أسئلتهم ؛ فهو حي يعايش الأموات ، أكثر مما يعايش الأحياء .

وربما اعتبر بعضهم موقفه هذا الشخصي معبِّراً عن موقف الإسلام ، وهذا هو الخطأ الشنيع ، سواء من الشخص أو ممن يحلل موقفه .

فالإسلام يكر بشدة على الذين يجمدون على الماضي وحده ، متبعين للآباء والأجداد ، وإن كانوا على باطل ، ومن عباراته القارعة لهم : ﴿**أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهم لا يَعقِلُونَ شَيئاً ولا يَهتَدونَ**﴾ [البقرة :١٧٠] ، ﴿**أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهم لا يَعلَمونَ شَيئاً ولا يَهتَدونَ**﴾ [المائدة : ١٠٤] ، ﴿**قَالَ أَوَ لَوْ جِئتُكم بِأَهدَى مِمّا وَجَدتُمْ عَلَيهِ آباءَكم**﴾ [الزخرف : ٢٤] .

وينكر الإسلام على الذين يجترّون الذكريات الأليمة ، ويعيشون في دوّامتها الحزينة ، فتنغص عليهم حياتهم ، دون أن يصنعوا شيئاً لمستقبلهم . وفي ذلك يقول القرآن : ﴿**يا أَيُّها الذِينَ آمَنواْ لا تَكونواْ**

كالَّذِينَ كَفَروا وقالوا لإخوانِهِم إذا ضَرَبوا في الأَرْضِ أو كانوا غُزًّى لَوْ كانوا عِنْدَنا ما ماتوا وما قُتِلوا لِيَجعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسرَةً في قُلوبِهِم﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

وفي مثل ذلك يقول الرسول الكريم : «احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، ولا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، بل قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»(١) .

والمراد بـ (لو) هنا (لو) المتمنية المتحسِّرة ، وهي التي يقول فيها الشاعر :

ليت شِعري وأين مني (ليتٌ) إنَّ (ليتاً) وإنَّ (لوّاً) عناء!

ويقول الآخر :

وليس براجع ما فات مني بـ (لَهْفَ) ولا بـ (ليتَ) ولا (لَوَ انّي)!

وقال بعض السَّلَف : «الاشتغال بوقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ» .

المطلوب ـ إذن ـ أن يعيش الإنسان المؤمن القوي في حاضره ، منطلقاً إلى مستقبله ، ولكي يحسن العيشة في حاضره زمانه ، وبعبارة أخرى : عصره ، ينبغي أن يعرفه ، حتى يتعامل معه على بصيرة .

وفي هذا ورد حديث أخرجه ابن حبان عن أبي ذر ، وفيه : «ينبغي للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شأنه»(٢) ، ومن الكلمات المأثورة : «رحم الله امرأً عرف زمانه ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب «القدر» عن أبي هريرة ، حديث رقم (٢٦٦٤) ، باب : في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ـ الجزء الثاني ، حديث رقم (٣٦١) ، طبع الرسالة ـ عن أبي ذر أن هذا مما كان في صحف إبراهيم ، وإسناده ضعيف جداً ، وحسبه أن يكون من كلام بعض السَّلَف .

obeikandl.com

واستقامت طريقته»[1] .

وهذه المعرفة قد تكون مطلوبة طلب استحباب ، أو طلب وجوب ، فإذا كانت هذه المعرفة وسيلة لازمة لأداء واجب ، كانت هي واجبة كذلك . وفقاً للقاعدة الفقهية الشهيرة : «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» .

خذ مثلاً : الفقيه والمربِّي والداعية ، لا يستطيع أحدهم أن يصل إلى الصواب والرشد في مجاله إذا كان يجهل عصره ، ويخاطب أهله بلغة عصر آخر ، فلا مراء أنهم لن يفهموا عنه . وقوله تعالى : ﴿**وما أَرسَلْنا مِن رَّسولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَوْمِه لِيُبَيِّنَ لَهم**﴾ [إبراهيم : ٤] ، يُفهم منه أنه كما يجب على صاحب الرسالة أن يتحدث بلسان قومه حتى يُفهمهم ويُبيِّن لهم ، يجب عليه أن يتحدث بلسان عصره ، حتى يُفْهِمَ أهله ويُبيِّن لهم ، وإلا لم تقم عليهم حُجَّة .

ولقد قرر فقهاؤنا المحققون : أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان ، والعُرْف والحال[2] ، فاعترفوا بأثر التغير الزماني ، اعترافهم بأثر التغير المكاني ، بل كثيراً ما قدَّموا تغير الزمان على سائر التغيرات .

حتى إن «مجلة الأحكام العدلية» الشهيرة نصّت في إحدى موادّها على هذه القاعدة فقالت : «لا يُنكر تغير الأحكام بتغير الزمان» [3] .

---

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن عباس ، وفيه راوٍ متهم ، وحسبه أن يكون من كلام ابن عباس . انظر : الحديث رقم (٤٤٤٠) من فيض القدير للمناوي .

(٢) انظر : كلام ابن القيم في أو الجزء الثالث من «إعلام الموقعين» .

(٣) انظر : المادة (٣٩) من مجلة الأحكام وشرحها للأستاذ علي حيدر في «درر الحكام شرح مجلة الأحكام» : ٤٣/١ ، وانظر : تعليقنا عليها في كتابنا «شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان» ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

ولهذا تغيَّرت بعض الفتاوى في عصر الصحابة عما كان عليه الحال في عصر النبوة ، كما في قضية جمع المصحف ، وجلد الشارب في عهد أبي بكر ، وقضية قسمة الأرض المفتوحة وجلد شارب الخمر ثمانين في عهد عمر ، وقضية جمع الناس على مصحف واحد في عهد عثمان ، والتقاط الإبل الضالة في عهده ، وقضية تضمين الصنّاع في عهد عليّ وقوله : «لا يصلح الناس إلا ذاك» .

وقد اختلفت الفتاوى في عصر التابعين عن عصر الصحابة .

واختلفت فتاوى عصر الأئمة المتبوعين عن عصر شيوخهم من التابعين وأتباعهم .

واختلفت فتاوى أصحاب الأئمة وتلاميذهم عن فتاوى شيوخهم ، وأئمتهم ، لاختلاف العصر ، رغم قُرْب العهد . وكثيراً ما عبَّروا عن الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه الشهيرين أبي يوسف ومحمد بقولهم : إنه ليس اختلاف حُجَّة وبرهان ، بل هو اختلاف عصر وزمان ؟[1] .

* *

● معرفة الواقع من تمام معرفة العصر :

ومن تمام معرفة العصر : معرفة الواقع المعيش ، الواقع المحلي (الوطني) ، والواقع الإقليمي (العربي) ، والواقع الإسلامي ، والواقع العالَمي .

وهذه المعرفة لازمة لكل مَن يريد تقويم هذه الواقع ، أو إصدار

---

(١) انظر : ما كتبته عن عامل تغير الفتوى من عوامل انسعة والمرونة من ص ٢٠٠-٢٢٩ من كتابي «مدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية» ـ طبع مكتبة وهبة .

حكم له أو عليه ، أو محاولة تغييره .

وقد ذكر علماؤنا أن من واجب الفقيه أو المفتي أن يعرف الواقع قبل أن يفتي فيه بجواز أو منع ، أو حِلٍّ أو حُرْمة ، فلا يكون كل بحثه وكل همه حول ما يجب أن يكون ، مغفلاً ما هو كائن بالفعل ، ولهذا قال العلامة ابن القيم : إن الفقيه هو مَن يزاوج بين الواجب والواقع .

وقبل ذلك قال الإمام أحمد في بيان ما يجب أن يتصف به المفتي ، فذكر العلم والحلم . . إلخ . ثم قال : ومعرفة الناس . وهذه العبارة «معرفة الناس» تعبير عن معرفة الواقع . وقد علَّق عليها ابن القيم بقوله : هذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم ، فإن لم يكن فقيهاً فيه ، فقيهاً في الأمر والنهي ، ثم يطبِّق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح[1] .

ولا تتم معرفة الواقع على ما هو عليه حقيقة إلا بمعرفة العناصر الفاعلة فيه ، والموجهة له ، والمؤثرة في تكوينه وتلوينه ، سواء أكانت عناصر مادية أم معنوية ، بشرية أم غير بشرية . ومنها عناصر جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية .

وتفسير الواقع كتفسير التاريخ ، يتأثر باتجاه المفسر وانتمائه العقدي والفكري .

وقد حذَّرْنا في كتابنا «الصحوة وهموم الوطن العربي والإسلامي» من النظرات : الجزئية ، والمحلية ، والآنية ، والسطحية ، والتلفيقية ، والتبريرية .

---

(١) نقلها ابن القيم في «إعلامه» : ٤/ ١٩٩ . وانظر : كذلك كتابنا «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» ص٤٧ ، ٤٨ - طبع دار القلم بالكويت .

وهذا ما ينبغي أن نُحذّر منه هنا أيضاً في بيان الواقع وتفسيره .

فعلينا أن نُحذّر من الاتجاه «الإطرائي» للواقع ، ومحاولة تحسينه ، وإبراز صورته سالمة من كل عيب ، منزَّهة عن كل نقص ، وغض الطرف عن العيوب الكامنة فيه ، وإن كانت تنخر في كيانه ، واتهام كل مَن ينقد هذه العيوب والآفات بأنه مشوش ، أو مبالغ ، أو متطرف .

ولنحذر كذلك من الاتجاه «التشاؤمي» الذي ينظر إلى الواقع بمنظار أسود ، يُجَرِّده من كل حسنة ، ويلحق به كل نقيصة ، ولا يرى فيه إلا ظلمات متراكمة ، موروثة من عهود التخلف ، أو وافدة مع عهد الاستعمار . حكومات خائنة ـــ بلسان أهل الوطنية ـــ أو كافرة ـ بلسان أهل الدين ـ وجماهير مُضلَّلة ، وأقطار هي مجموعة أصفار !! وما يُرجى من تغيير ، أو يؤمل من إصلاح ، فهو سراب يحسبه الظمآن ماء .

ومثل ذلك : الاتجاه « التآمري» في تفسير الواقع ، الذي يرى وراء كل حدث ـ وإن صغر ـ أيدياً أجنبية ، وقوىً خفية ، تحركه من وراء ستار ، يهودية ، أو صليبية ، أو ماسونية ، أو غيرها ، ونحن لا ننكر أن هناك كيداً خفيّاً لهذه الأمة ، يكيده لها أعداؤها الظاهرون والمستخْفون ـ سُنَّة الله في خلقه ـــ ولكن تضخيم ذلك بحيث يجعلنا «أحجاراً على رقعة شطرنج» يفت في عضدنا ، ويوئسنا من أي توجه إيجابي لإرادة التغيير ، ويريحنا بأن نشعر أننا أبداً ضحايا مَن هو أقوى منا ، ولا حل أمامنا غير الاستسلام للواقع المرّ . ومن ناحية أخرى يجعلنا هذا لا نعود على أنفسنا باللائمة ولا نحاول إصلاح ما فسد ، وتدارك ما وقع .

إن أَوْلى من تعليق أخطائنا على مشجب التآمر الخارجي ، أن نردها إلى الخلل الداخلي ، أي الخلل في أنفسنا قبل كل شيء . وهذا ما قرره القرآن بعد هزيمة غزوة أُحُد ، حيث خاطب المسلمين فقال : ﴿**أَوَ لَمَّا أَصابَتْكم مُّصيبَةٌ قد أَصَبْتم مِثْلَيْها قُلْتم أَنّى هَذا قُلْ هو مِن عِنْدِ أَنْفُسِكم**﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

وقريب من ذلك : الاتجاه «التنصّلي» في تفسير الواقع ، بمعنى أن أحداً لا يريد أن يتحمل مسؤولية ما في هذا الواقع من سوء وانحراف ، فكل واحد ، وكل فريق ، يريد أن يحمل وزره على غيره ؛ أما هو فلا ذنب له ، ولاتَبِعَة عليه .

الكل يشكو من الفساد ، ولكن مَن المسؤول عن فساد الحال ؟

جمهور كبير من الناس يحملون المسؤولية على العلماء ، والعلماء يحملون المسؤولية على الحكام ، والحكام يحملونها على الضغوط الخارجية أو الضرورات الداخلية .

والحق أن الجميع مسؤولون ، كل حسب ما له من مُكنة وسلطة : الجماهير والعلماء ، والمفكرون والمربون والحكام . وفي هذا جاء الحديث الصحيح : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] .

ومن التفسيرات المحذورة للواقع : التفسير «التبريري» الذي يحاول أن يضفي على الواقع ، ما يجعله مقبولاً ومشروعاً ، وإن حاد عن الحق وسواء السبيل ، وفي هذا لون من التدليس والتلبيس ، وبإظهار الواقع على غير حقيقته ، وإلباسه زِيّاً غير زيه ، كالذي يُلبس الخواجة الأوروبي جبة وعمامة ، فيبدو وكأنه شيخ أزهري مسلم ، وما هو من الإسلام ولا الأزهر في شيء .

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر . انظر : «صحيح الجامع الصغير» برقم (٤٥٦٩) .

إننا نريد معرفة واقع عصرنا وعالمنا عموماً ، وواقع أمتنا خصوصاً كما هو ، دون تحريف ولا تزييف ، ولا تهويل ولا تهوين ، ولا مدح ولا ذم ، مستخدمين الأساليب العلمية الموضوعية في الكشف والرصد والتحليل ، وفي هذا ما يساعدنا على تشخيص الداء ، ووصف الدواء .

إن خصومنا يعرفوننا تماماً ، من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا ، بل نحن ـ كما قال الدكتور كمال أبو المجد في محاضرة له في جامعة قطر ـ : مكشوفون لهم حتى النخاع .

فهل عرفنا نحن خصومنا ؟ وأقصد بخصومنا : أصحاب المشروع الحضاري المخالف لمشروعنا ، وكل الخائفين منا ، والطامعين فينا .

وإذا كنا لم نعرف أنفسنا كما عرفها غيرنا ، فأنّى لنا أن نطمع بمعرفتهم ؟

هل عرفنا «البُعد الديني» في سياسة الغرب العالمية ، وسياسته معنا على وجه الخصوص ؟ وعلى الأخص مع إسرائيل ؟[1] .

هل عرفنا دور الكنيسة الحقيقي وأصابعها المؤثرة في السياسة ، برغم انفصال الدين عن الدولة ؟

هل عرفنا ما ينفقه الغرب من مليارات وما يقوم به من جهود ، في سبيل التنصير عامة ، وتنصير المسلمين خاصة[2] ؟

---

(١) انظر : كتاب «البُعد الديني في السياسة الأمريكية» للدكتور يوسف الحسن ، من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية .

(٢) انظر : كتاب «التنصير» . وهو يتضمن الترجمة العربية للبحوث التي قدَّمها كبار المبشرين البروتستانت في أمريكا إلى مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨م ، والخاص بـ «تنصير المسلمين في العالَم» ، وهو كتاب خطير يجب أن يقرأ .

هل عرفنا أن الغرب المعاصر لم ينفصل عن تراثه ، بل بنى عليه ؟ ولم يفعل ما يطالبنا به بعض «التقدميين» أو «الليبراليين» منا ، وهو الانسلاخ من جلدنا ، أي من تراثنا .

يقول المفكر المغربي الدكتور محمد عزير الحبابي : الغرب نفسه يتغير باطراد في صيرورة متصاعدة ، فلاغرابة أن يعتمد على تراثه الخاص ، عساه يحافظ على معالم ثابتة في هُويته ، وينفتح على ما يجري خارج مناطقه ، دون تخوف من الذوبان . فمن العبث أن نقلد الغرب في كل شيء علّنا نلتحق بالمعاصرة ، وفي الآن نفسه يرفض بعضنا الاقتداء به في المحافظة على أصالتنا ، كما يحافظ هو على أصالته[1] .

● عصرنا بين الإيجابيات والسلبيات :

ولعصرنا خصائص تميزه عن غيره يجب أن ندركها ونستوعبها ، بما فيها من إيجابيات وسلبيات .

فهو عصر العلم والتكنولوجيا .

وهو عصر الحرية وحقوق الإنسان ، واستقلال الشعوب .

وهو عصر السرعة والقوة والتغيرات السريعة ، والتطورات الهائلة .

وهو عصر التضامّ والالتحام ، والظهور في كتل كبيرة .

وهو عصر التخطيط والتنظيم لا الارتجالية والفوضى والتواكل .

وهو عصر اقتحام المستقبل ، وعدم الاكتفاء بالواقع ، فضلاً عن الانكفاء على الماضي .

وهذه كلها من إيجابيات العصر وإنجازاته ، إذا صحَّت الأهداف ، ووضعت الضوابط .

---

(١) انظر : كتاب «التراث وتحديات العصر» ص١٠٤ .

ولكن للعصر جوانب أخرى اقتضتها سُنّة الله في هذا الكون ، حيث تمتزج فيها الخيرات بالشرور ، والمنافع بالمضارّ ، واللّذات بالآلام .

فهو عصر غلبة المادية والنفعية .

وهو عصر تدليل الإنسان بإشباع شهواته .

وهو عصر التلوث بكل مظاهره .

وهو عصر الوسائل والآلات ، لا عصر المقاصد والغايات .

وهو عصر القلق والأمراض النفسية ، والتمزقات الاجتماعية .

● **المعاصرة بين الجبر والاختيار :**

وإذا كان لعصرنا سلبياته كما له إيجابياته ، فهل من مقتضى المعاصرة أن نأخذ العصر بكل ما فيه ، باعتباره وحدة لا تتجزأ ؟ أم لنا حق الانتقاء والتخيّر ؟

وهذا يقتضينا أن نسأل هنا سؤالاً مهمّاً :

ما هو العصر ؟ وما موقفنا منه ؟

أهو قدر غالب لا مفرّ من الخضوع له ، والانحناء لجلاله ، ولا مفرّ لنا من أن نأخذ بعجره وبجره ، وخيره وشره ، وحلوه ومرّه ؟

أم من حقنا أن نأخذ من العصر أحسنه وأمثله ، وندع ما فيه مما لا يلائم عقائدنا وشرائعنا وقيمنا ؟

إن «العصر» – في واقع الأمر – مثل «الوطن» هو الناس الذين يعيشون فيه ، بأفكارهم ومعارفهم وأعرافهم ومشاعرهم ، وأخلاقهم وأعمالهم ، وأنظمتهم وثقافاتهم ، بما فيها من صواب وخطأ ، ومن استقامة وعوج ، ومن خير وشر ، ومن نفع وضر .

ومن حق الناس – بل من واجبهم – أن يميِّزوا بين الصواب في

الفكر ، والخير في السلوك ، والنافع من العمل ، في العصر ، وبين الخطأ في الفكر ، والشر في السلوك ، والضار في العمل ، مما جاء به العصر ، فيحرصوا على الجانب الأول ، ويأخذوا به ، ويجتهدوا في اجتناب الجانب الآخر ما وسعهم الجهد .

ولسنا هنا مع « الجبرية الزمانية» التي تعتبر الإنسان «وعاء» يملؤه العصر بما يشاء ، وإن لم يشأ الإنسان .

كما أن هناك «جبرية مكانية» ترى الإنسان «مسيّراً» لبيئته الجغرافية ، هي التي تحدد شخصيته ، وتوجّه فكره وسلوكه .

ونحن نرفض «الجبريات» كلها ، التي تعتبر الإنسان مُسيَّراً لا مُخيَّراً ، ومقهوراً لا مريداً ، سواء في ذلك «الجبرية الدينية» القديمة التي تجعل الإنسان كريشة تحركها رياح الأقدار أم «الجبرية الاجتماعية» التي ترى الفرد دمية يُحرِّك خيوطها المجتمع ، أم «الجبرية السياسية» التي تشيع الآن وتجعل مجتمعاتنا كلها «أحجاراً على رقعة الشطرنج» !

إن الإنسان يتأثر ـ ولا ريب ـ ببيئته الخاصة والعامة ، المادية والثقافية ، كما يتأثر بعصره وزمانه ، ولكنه لا يفقد إرادته واختياره أمام هذه المؤثرات ، فقد منحه الله من القوى والملكات ما يجعله قادراً على حمل أمانة المسؤولية ، وتقرير مصيره بنفسه وصنع يده : ﴿**قَدْ جاءَكم بَصائِرُ مِن رَّبِّكم فمَن أبْصَرَ فَلِنَفْسِه ومَن عمِيَ فعَلَيْهَا**﴾ [الأنعام : ١٠٤] ، ﴿**إنْ أَحْسَنْتم أَحْسَنْتم لأَنْفُسِكم وإن أَسَأْتم فلَها**﴾ [الإسراء : ٧] .

ومن المعلوم أن مِنَ الناس مَنْ يعيش خارج عصره ، فهو يهرب منه ليحيا في الماضي القريب أو البعيد ، وهربه من العصر إما لنفوره منه وكراهيته له ، لما يشتمل عليه من أمور تهدد كيانه الاعتقادي أو

الفكري أو العملي . وإما لخوفه منه ، وضعفه أمام مغرياتـه وعوائقه ، وربما بالغ في هذا الخـوف لجهله بحقيقة العصر ، أو ضعف معرفته به ، أو فهمه على غير وجهه ، فلا يجد أمامه إلا العزلة عنه ، بـدل المواجهة التي لا يملك أسلحتها .

كما أنَّ مِن الناس مَن يندمج في العصر إلى حـدّ الذوبـان فيـه ، فهـو لا يقـف مـن العصـر موقـف الفـاحص المنتقـي ، الـذي يـأخذ ويدع ، بل يأخذه كله ، وينزل في بحره إلى الأعماق ، إلى حدّ قـد يغرق فيه ، فلا يجد شاطئاً ، ولا قارباً للنجاة .

والخير في الوسط الذي يعرف العصر ، ويحيا فيه ، آخـذاً أحسن ما فيه ، ومنتفعاً بكل جوانبه الإيجابية الخيِّرة ، مُعْرِضاً عـن الجوانـب الأخرى التي تضر ولا تنفع .

* *

● ليس العصر هو الغرب :

ولا بد هنا من إيضاح حقيقة لها وزنها وقيمتها ، وهي : أن العصـر ليس هو الغرب .

فمِن الناس مَن يعتبر أن عصرنا هو الغـرب بكـل مـا فيـه ، مـن خير وشر ، ورُشد وغيٍّ ، وهدىً وضلال ، واستقامة وانحراف . وأننا إذا شئنا أن نعيش عصرنا حقاً يلزمنا أن نحيـا حيـاة الغربيـين بخيرهـا وشرها ، وحلوها ومرّها ، ما يحب منها وما يُكره ، وما يُحمدُ منهـا وما يُعاب .

ولكن البحث المتعمق المنصف يرينا أن الغـرب ــ وإن كـان هـو المهيمن في عصرنـا على الحيـاة ، وكـانت ثقافتـه هـي الثقافـة السـائدة والغالبة على العالَم ـ ليس هو كل العالَم ، ولا كل العصر .

فهنـاك العـالَم الإسـلامي ـ على امتـداده وسـعته ـــ لـه ثقافتـه

الخاصة ، ومعارفه وقيمه المتميزة ، ورغم سطوة الغرب الساحقة في عالَم الثقافة ، مثل سيطرته في عالَم السياسة ، ورغم تأثر العالَم الإسلامي بالغرب تأثراً هائلاً في كل أنماط الحياة ـــ يظل العالَم الإسلامي متميزاً عن غيره من العوالِم الأخرى ، كتابية كانت أم وثنية .

وهناك عالَم الشرق الأقصى بدياناته وفلسفاته ، وطقوسه واتجاهاته ، وما فيها من حقائق وأساطير ، تكوّن جزراً ثقافية أخرى لم تستطع الديانات السماوية الكبرى أن تؤثر فيها التأثير الثقافي المطلوب .

ومن هنا نقول : إن العصر أوسع من الغرب ، برغم تأثيره البالغ عليه .

كما نقول أيضاً إن الغرب ليس كله شرّاً ولا ضلالاً ، فكم فيه من علم نافع ، وكم فيه من عمل صالح ، وكم فيه من خُلُقٍ كريم ، وكم فيه من إنجازات هائلة ، وإمكانات ضخمة ، يمكن توظيفها لصالح الإنسان ، كلّ إنسان .

لقد أقرَّ الرسول الكريم ﷺ بعض الأحكام والتقاليد التي كان معمولاً بها في الجاهلية ، حيث لم يجد فيها ما يخالف ما جاء به الإسلام .

وأقرَّ أشياء أخرى مع بعض التعديل ، لتتفق مع هداية الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

ونقل أشياء من الأمم الأخرى ، ولم ير في ذلك بأساً ، مثل أسلوب حفر الخنادق ، ونصب المنجنيق في الحرب ، ولم تكن من مكايد العرب في حروبهم .

ونوَّه الرسول ﷺ بحلف اشترك فيه في صغره ، وهو في الجاهلية ، لرد المظالم ، ونصرة المظلوم ، وقال عنه : «لو دُعِيتُ لمثله

في الإسلام لأجبت»[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل!»[2]

وإنما قالها لبيد في الجاهلية قبل أن يسلم .

وأشاد عليه السلام بخطبة سمعها قبل البعثة من قسّ بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ .

لا حَرَج علينا إذن أن نقتبس من الغرب ما ينفعنا ، وما يليق بنا ، ويتلاءم مع قيمنا وثقافتنا ، وما يؤكد المبادئ التي دعا إليها ديننا .

وقد توجب علينا عملية الملاءمة هذه أن نُعدِّل ونُحوِّر ـــ بالحذف والإضافة ـ فيما نقتبسه حتى يغدو صالحاً لنا ، متوافقاً مع أصول شريعتنا ، ونظام حياتنا ، وظروف بيئتنا . وقد يصبح بهذا التعديل والتحوير جزءاً من وجودنا المعنوي ، وكياننا الثقافي ، ويفقد جنسيته الأولى .

لا جُناح علينا أن نأخذ من الديمقراطية وضماناتها وعناصرها ما يؤكد مبدأ الشورى ، ومبدأ النصيحة المحاسبة للحاكم ، وحق عزله إن جار عما بويع عليه[3] .

وأن نأخذ من نظام القضاء والمحاكمات الغربي ، وأنواع المحاكم

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام ، بسند صحيح ، إلا أنه مرسل ، ولكن له شواهد تقويه . انظر : تخريج فقه السيرة للألباني ، حديث رقم (٢٢) .

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة ، كما في «صحيح الجامع الصغير» (١٠١٣) .

(٣) انظر : «الإسلام والديمقراطية» ، و«تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية» من كتابي «فتاوى معاصرة» : ٦٣٦/٢-٦٦٥ ، طبع دار الوفاء بمصر ، وانظر : فصل «هم الاستبداد السياسي» من كتابي «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» . نشر دار الرسالة . بيروت ، ودار الصحوة بالقاهرة .

ودرجاتها ، ما يؤكد مبدأ العدل الذي فرضه الإسلام ، وأقام عليه الحكم .

وأن نأخذ مما ابتكره الغرب من أدوات للثقافة ـــ كالسينما والمسرح والتلفاز والإذاعة ـــ على أن نفرغ فيها المضمون الذي يتناسق معنا ، ويدعم هويتنا ، ونضع لها من الشروط والضوابط ما يجعلها أدوات بناء لا معاول هدم .

وكل ما لدى الغرب من وسائل وآليات لا بأس بأخذه منه ، إذا استخدمناه فيما يخدم أهدافنا ومقاصدنا . إذ لا حكم للوسائل إلا باعتبار مقاصدها ، وقد يرتقي أخذها واستيرادها إلى درجة الوجوب والفرضية لا مجرد الجواز والمشروعية ، إذا كانت وسيلة لازمة ومتعينة لأمر واجب ، وفقاً للقاعدة الشهيرة : «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» .

وليس هذا خاصّاً بالوسائل والأدوات المادية ، بل يشمل المعارف والأفكار النظرية أيضاً .

وقد نبَّهتُ في بعض ما كتبت من قبل[1] أن رفضنا لبعض الفلسفات والنظريات الكلية التي ظهرت في الغرب ، وكان لها أتباع وأنصار ، كما كان لها خصوم وأعداء ، مثل نظرية «دارون» في النشوء والارتقاء ، أو نظرية «دوركايم» في نشأة الدين وتفسير الظواهر الاجتماعية ، أو فلسفة «فرويد» في التحليل النفسي وتفسير السلوك الإنساني ، أو فلسفة «ماركس» في التفسير المادي للتاريخ ـــ رفضنا لهذه النظريات في فلسفتها الكلية ، واتجاهها العام ، لا يعني بالضرورة أن كل ما قاله هؤلاء باطل ، فقد نجد عند كل واحد من هؤلاء

(١) انظر : كتابي « بيِّنات الحل الإسلامي» ص ٨٢- ٨٦ تحت عنوان «مشروعية الاقتباس مما عند غيرنا وحدوده» .

في مجاله ، من النظرات العميقة ، والتحليلات الدقيقة ، والآراء الرشيدة ، ما ينبغي لنا أن ننتفع به ، ونفيد منه لفكرنا وثقافتنا ، تطبيقاً لما قاله سَلَفنا : «خذ الحكمة من أي وعاء خرجت» .

وقد حكى القرآن ، على لسان بعض المشركين كلمات حكيمة تتلوها الأجيال في كتاب الله ، وتستضيء بها ، وإن كان قارئها غير مؤمن ، كما في قوله على لسان ملكة سبأ : ﴿**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**﴾ [النمل : ٣٤] .

فبيَّنت ما يفعله الفتح الملوكي (الاستعماري) بالبلاد والعباد . وقد قالت ذلك قبل أن تسلم مع سليمان لله رب العالمين .

ومثل ذلك قول امرأة العزيز : ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [يوسف : ٥٣] .

وقد روى أبو داود عن الصحابي الفقيه معاذ بن جبل : «إن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . ولما قال له بعض أصحابه : وما يدريني — رحمك الله — أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال : بلى ، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات — وفي بعض الروايات : المشتبهات — التي يقال لها : ما هذه ؟ ! ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع ، وتلقّ الحق إذا سمعته — أي ولو من منافق — فإن على الحق نوراً»[1] .

* *

(١) رواه أبو داود في كتاب «السُّنة» ، باب : لزوم السُّنّة . عن معاذ موقوفاً برقم (٤٦١١) .

● **استيراد الثقافة الغربية بكل عناصرها :**

ومن الدعوات المشبوهة هنا ما ينفّقُ له بعض الناس من وجوب فتح النوافذ للثقافة الغربية بكل ما فيها من صواب وخطأ ، ورشد وغيّ بحجتين يحتجون بهما :

الأولى : أن هذه الثقافة ثقافة عالَمية ، وليس ثقافة غربية . فإذا لم نفتح لها الأبواب والنوافذ على مصاريعها ، تخلّفنا عن رَكْب العالَم المعاصر ، وبتنا في عزلة قاتلة عن مسيرته الثقافية المتطورة .

والثانية : أن الثقافة أو الحضارة لا تتجزّأ ، فهي لا تعطيك بعضها ، حتى تأخذها كلها ، فأجزاؤها مرتبطة ارتباطاً عضويّاً بعضها مع بعض ، لا يجوز أن نأخذ الجانب المادي أو العلمي ، دون الجانب الأدبي ، ولا يسوغ أن نأخذ بعض الجانب الثقافي دون بعض .

* *

● **دعوى عالَمية الثقافة :**

أما الشبهة الأولى فهي مغالطة مكشوفة ، فمن المقرر المعلوم لدى الدارسين أن الثقافة غير العلم المحض ، القائم على الملاحظة والتجربة ، فهذا العلم التجريبي عالَمي حقّاً ، فقوانين الفيزياء والكيمياء ، والفلك والتشريح والطب وغيرها قوانين عامة ، لا تتأثر بدين ولا وطن ولا قوم ، إلا في عرضها وتدريسها ، وربطها بالفلسفة العليا للكون كله ، وللوجود كله ، ووضع الضوابط لتوظيفها فيما يخدم الأهداف العليا للإنسان ، ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية .

أما الثقافة فخصوصيتها ثابتة ومؤكدة ، لأنها ليست مجرد معارف

ذهنية مجردة ، بل هي معارف وإدراكات ، ممزوجة بقيم واعتقادات ، مجسّدة في أعمال وسلوكيات ، تعبِّر عنها شعائر وآداب وفنون ، تُقرأ وتُسمع ، وتُحَس وتُرَى .

وهي تتأثر في ذلك كله بالدين واللغة ، والبيئة ، والمواريث الثقافية والحضارية ، والتفاعل مع الآخرين إيجاباً أو سلباً .

ولهذا تختلف ثقافة الشعوب بعضها عن بعض ، فثقافة أهل الشرق غير ثقافة أهل الغرب ، وثقافة أهل الإلحاد غير ثقافة أهل الدين ، وثقافة أهل الكتاب غير ثقافة الوثنيين ، وثقافة الحَضَر غير ثقافة البدو ، وثقافة العرب غير ثقافة العجم ، وثقافة المسلمين غير ثقافة غيرهم من أهل الملل الوضعية أو السماوية .

ولو نظرنا إلى الغرب ، لوجدنا ثقافة البلاد الليبرالية تختلف كثيراً عن البلاد الشيوعية ، ثم وجدنا الليبراليين يتفاوتون فيما بينهم ، فالثقافة اللاتينية غير السكسونية ، غير الجرمانية ، وهذه كلها غير الثقافة الأمريكية .

صحيح أن هناك قَدْراً مشتركاً بينها ، لاتفاقها في الدين المسيحي ، والاستمداد من الحضارتين الإغريقية والرومانية ، وتشابه البيئة ، ولكن يبقى لكل منها تميّزه ومشخّصاته .

أما المسلمون ـ والعرب خاصة ـ فلهم ثقافتهم الخاصة التي تعبّر عن كينونتهم الحضارية المتميزة ، والتي اتسمت بخصائص قلّما تتوافر لغيرها ، تحدثنا عنها في موضعها .

* *

• هل الحضارة كلٌ لا يتجزأ ؟

وأما الشُبْهة الأخرى ، وهي أن الثقافة أو الحضارة مرتبطة ارتباطاً عضوياً لا يقبل التجزئة ، بحيث يستحيل أخذ بعضها دون بعض . فهو قول مرفوض ، ودعوى مردودة ، يرفضها المنطق ، ويردها التاريخ والواقع .

لقد دعا الدكتور طه حسين إلى ذلك في الثلاثينيات من هذا القرن العشرين ـ في كتابه مستقبل الثقافة في مصر ـ كما دعا إليه آخرون قبله وبعده وردّ عليهم آخرون قديماً وحديثاً .

وقد عرضت لذلك في كتابي «الحلول المستوردة» (١) ، وبيَّنتُ أن الانتقاء من الحضارات والثقافات ممكن وواقع . وقد حدث قديماً وحدث في عصرنا .

فقد أخذ المسلمون في عصورهم الذهبية عن الفُرْس والهنود واليونان ، جوانب مختلفة من حضاراتهم وثقافاتهم ، وانتفعوا بها بقدر أو بآخر ، ولم يكن حتماً عليهم أن يأخذوا كل ما في هذه الحضارات أو الثقافات .

وأخذ الأوروبيون بعد ذلك من المسلمين المنهج العلمي الاستقرائي ، كما شهد بذلك المنصفون من مؤرخي العلم الغربيين أنفسهم(٢) ، وانتفعوا بهذا المنهج أيما انتفاع ، ولم يكن لازماً لذلك أن يأخذوا من المسلمين عقائدهم وتصوراتهم ، وعباداتهم وآدابهم ،

---

(١) فصل «كيف عُزِلَ الإسلام عن قيادة المجتمع» ؟

(٢) من أمثال «بريفولت» و«غوستاف لوبون» و«جورج سارتون» وغيرهم ، انظر : مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ، للدكتور سامي علي النشار ، ص ٣٨٢- ٣٨٥ ، ط دار المعارف الثانية .

وغير ذلك مما يُكوِّن ثقافتهم المتكاملة .

وأخذ اليابانيون اليوم من الغربيين علمهم الطبيعي والرياضي ، وما أثمره من تطبيقات تكنولوجية ، فأفادوا منه وتفوّقوا فيه على أصحابه أنفسهم ، ولم يأخذوا منهم ما يتعلق بالعقائد والشعائر والتقاليد ، وما ضرّهم ذلك شيئاً ، بل حفظ عليهم ذاتيتهم ، وشخصيتهم التاريخية المستقلة .

والمؤرخ المفكر الغربي الشهير «توينبي» ينقد بشدة غير الغربيين الذين يقبلون الحضارة الغربية بكل عناصرها ، ويرى ذلك من سوء حظ البَشرية . وذلك حين يتحدث عن البلاد التي تحررت من الاستعمار الغربي ، فيقول في «محاضراته» :

«ولكن هذه البلاد التي استقلت سياسياً ، ما زالت غير متحررة تماماً من الوجهة الثقافية ، فهي لا تزال متأثرة بالأفكار والمُثُل العليا الغربية ، دون تمييز ودون أي انتقاد لها» .

وفي موضع آخر يقول : «على أن كل هذه البلاد التي نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسية ، قد استغلت حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق . فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضد السيطرة السياسية للغرب . ويمكن القول بأن كفاحها هذا قد كلّل بالنجاح في كل الحالات حتى الآن . ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرر سياسيّاً من الغرب ، أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التي اكتسبتها في النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام ؛ أي أنه كان من المتوقع أن تستخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثاً ، لكي ترجع إلى أسلوبها التقليدي في الحياة ، وهو الأسلوب الذي كان سائداً في حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب . ولكن

الذي حدث في جميع الحالات تقريباً ـ كما نعلم ـ هو أن البلاد التي تحررت حديثاً قد استخدمت حريتها للغرض العكسي تماماً ؛ أي أنها قد استخدمتها لتقتبس ـ بمحض اختيارها ـ عناصر من المدنية الغربية ، أعني من أسلوب الحياة الحديثة ، وقد فعلت ذلك بحماسة ، وبلغت حماستها هذه حدّاً لم يكن الحكّام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا به المدنية الغربية عليهم ، ذلك لأن نظام الحكم الأجنبي ، يتعين عليه دائماً أن يكون أكثر حذراً من نظام الحكم القومي ، وهناك أمور لا يجرؤ النظام الأجنبي على فعلها مطلقاً ، ومع ذلك يجرؤ عليها النظام القومي» .

«ولكنني أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البَشري كله ـ وضمنه الغرب ذاته ـ أن يتّجه الجزء غير الغربي من العالَم إلى قبول المدنية الغربية بكل عناصرها دون تمييز ، ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضارّ فيها ، وأقول : إن هذا يكون من سوء الحظ ، لأن المدنية الغربية ـ شأنها شأن أي مدنية أخرى ـ فيها أوجه نافعة وأوجه ضارّة .

«ذلك لأن المستوى المادي للمعيشة ، ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لغاية أخرى هي رفع المستوى الروحي .

«وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادي ، يوجد رأس المال الإنساني ، وهو أهم رأس مال يملكه البَشر»[1] .

* *

(١) انظر : محاضرات «أرنولد توينبي» ص ٣٥-٤٠ ، وانظر : كتابنا : «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» ص١٣٧-١٣٨ ، طبع الرسالة ، بيروت .

• دفاع العلمانيين عن استيراد المذاهب والأفكار :

لقد دافعت بعض الأقلام العلمانية في ديارنا العربية الإسلامية عن اتجاه «الاستيراد» : استيراد المذاهب والأفكار من خارج أرضنا ، واستغرب بعضهم النقد الذين يوجهه «دعاة الأصالة» إلى المذاهب المستوردة ، والأفكار المستوردة ، والحلول المستوردة ، وحُجَّة هؤلاء : أن الحياة قائمة على التبادل ، هذا يصدّر ، وهذا يورّد ، وهذا يبيع ، وهذا يشتري ، وهذا يعطي ، وهذا يأخذ . وكما يحدث هذا في عالَم «الأشياء» ، فلماذا لا يحدث مثله في عالَم «الأفكار» ؟ وفق تقسيم مالك بن نبي رحمه الله .

وغفل هؤلاء عن عدة حقائق :

الأولى : أن دعاة الأصالة لا ينكرون استيراد الأفكار الجزئية ، أو الحلول الجزئية لمشكلاتنا من الغرب أو الشرق ، إذا كانت ملائمة لنا ، محققة لأهدافنا ، نختارها نحن ولا تُختار لنا أو تُفرض علينا . بل قد يوجبون الاستيراد إذا رأوا فيه مصلحة متعينة لأمتنا ، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأساليب .

إنما ينكرون استيراد مذهب كامل نتخذه مرجعاً لنا ، أو فكر كلي ، أو حل كلي ، نؤسس عليه حياتنا كالفكر ـ أو الحل ـ الليبرالي الرأسمالي ، أو الفكر ـ أو الحل ـ الاشتراكي الثوري الماركسي ، كما نادى منادون بهذا أو ذاك أيام نفاق سوقها في بلادها .

الثانية : أن دعاة الأصالة ينكرون أن نظل نحن نستورد أبداً ولا نصدِّر ، ونشتري ولا نبيع ، ونأخذ ولا نعطي ، ونستهلك ولا ننتج ، فهذا ليس من «التبادل» في شيء . إنما نحن ـ حينئذٍ ـ سوق لسلع الآخرين ، وأفواه مفتوحة لالتهام منتجاتهم . وهذه هي

«التبعية» الذليلة المرفوضة ، التي لا يجوز أن ترضى بها أمة كريمة على نفسها ، لا في عالَم الأشياء ، ولا في عالَم الأفكار .

وإذا سقطت أمة في مرحلة ما من تاريخها في هوة الاستيراد من جانب واحد ، فعليها أن تعتبر ذلك نقطة ضعف يجب أن تتجاوزها وتتحرر منها ، ولا تدافع عنها أو تباهي بها .

الثالثة : أن علم الاقتصاد الذي يستند إليه هؤلاء العلمانيون ، والذي يرى أن الحياة قائمة على التبادل ، وأن الاستيراد كثيراً ما يكون ضرورياً للأمم والجماعات ، هذا العلم نفسه يقيد هذا بقيود تجعله وسيلة نفع لا أداة ضرر ، وآلة بناء لا معول هدم .

فلا يجوز أن نستورد من غيرنا ما يضرنا ماديّاً أو معنويّاً ، كالذي يسمونه «المشروبات الروحية» وأدوات الاستهلاك الترفي ، ولوازم اللهو الحرام .

ولا يجوز أن نستورد إذا كان الاستيراد يعوِّد الشعب الاتكال على ما عند غيره ، لا الاعتماد على نفسه ، ليأكل مما يزرع ، ويلبس مما يصنع ، ويستهلك مما ينتج ، ويدافع عن نفسه بأسلحة من صنع يديه .

وفوق ذلك كله لا يجوز أن نستورد سلعة من غيرنا إذا كان لدينا سلعة مثلها ، ناهيك بسلعة أفضل منها .

وهذا ما جعل دعاة الأصالة العربية الإسلامية ينكرون استيراد أيديولوجيات ومذاهب ، نبتت في أرض غير أرضنا ، لتخاطب قوماً غير قومنا ، وتحمل لتفسير الوجود والمعرفة والقيم فلسفة غير فلسفتنا ، وتتعامل مع الله والإنسان ، والكون والحياة بثقافة غير ثقافتنا .

* *

● **النموذج الغربي للتنمية :**

وإذا كان الغرب ليس هو العصر ، فمن حقنا أن نتوقف أمام بعض دعاة المعاصرة الذين يريدوننا ـ لكي نكون معاصرين حقّاً ـ أن نأخذ «النموذج الغربي» في التنمية ، بكل ما أفرز من سلبيات في محيط الكون والحياة والإنسان . ويرون أنه لا سبيل لأن تنمو مجتمعاتنا وتنهض من كبوتها ، وتخرج من إسار التخلف ، إلا إذا قلّدت هذا النموذج حذوه القذّة بالقذَة .

هذا مع أن الغربيين أنفسهم اليوم يوجهون سهام نقدهم إلى هذا النموذج الذي غلبت عليه نزعات المادية والنفعية ، والآنية والمحلية والعنصرية جميعاً .

لقد عدا النموذج الغربي على التوازن الكوني ، وأمسى الناس يشكون اليوم من الخلل الذي أصاب طبقة «الأوزون» ، والذي ترتب عليه خلل كبير في حياة الناس ، قد يتفاقم فيؤدي إلى نتائج لا يعلم عواقبها إلا الله .

وعدا النموذج الغربي على «التوازن الفطري» الذي أودعه الله الحياة بعناصرها وأنواعها المختلفة ، فكان من أثره ما جعل الناس يشكون من «تلوّث البيئة» بمختلف مظاهره .

وأشد من خطر تلوّث البيئة : تلوّث الإنسان نفسه . حين تفسد فطرته ، وتختل موازينه ، ويعوج تفكيره وسلوكه ، فيرتكب من الحماقات ، ويقترف من المنكرات والشذوذات ، ما يُعاقَب عليه في الدنيا ، قبل الآخرة ، تعاقبه فطرة الله في الأرض قبل أن تعاقبه محكمته في السماء .

ومن هنا كان « الإيدز» ، وكانت الأمراض العصبية والنفسية ،

وكان القلق والاكتئاب ، المنتهي بالانتحار ، والتخلص من الحياة ، أو العيش في الحياة باعتبارها ملهاة أو مأساة! على نحو ما قال شاعرنا العربي قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميْتٍ ... إنما الميْت ميّتُ الأحياء

إنما الميت مَن يعيش كئيباً ... كاسفاً بالُهُ قليلَ الرجاء

لقد أدّى هذا النموذج بنزعاته تلك إلى أن جعل الإنسان عبداً للآلة ، التي هو صانعها ، وأن أصبح في النهاية ترساً في هذه الماكينة الكبيرة الجبارة ، إن لم يسر معها ويدر بدورانها ، طحنته عجلاتها ، ولم يبال به أحد .

لقد قدَّمت له التنمية الصناعية ـــ الخالية من القيم الإيمانية والأخلاقية ـ الوسائل ، ولم تقدِّم له الغايات ، قدَّمت له الرفاهية ، ولم تقدِّم له السكينة ، منحته المادة ، وسلبته الروح ، أعطته العلم ، وحرمته الإيمان ، ولا غرو أن وجدنا من فلاسفتهم ومفكريهم ، وعلمائهم وأدبائهم ، من سلَّطوا أضواءهم الكاشفة والناقدة على عورات هذا النموذج المسرف في المادية ، والذي جعل التنمية غاية أو إلَهاً معبوداً .

ومن أشهر نقادهم هنا : اثنان من حملة جائزة نوبل في العلوم ، وهما : «ألكسيس كاريل» ، و«رينيه دوبو»[1] .

هذا ما صنعه الغرب بنفسه حتى نما ، ناهيك بما صنعه بغيره من الشعوب والأوطان .

---

(١) انظر : «رينيه دوبو» في كتابه «إنسانية الإنسان» ترجمة د . نبيل صبحي الطويل ، و«ألكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» ترجمة أسعد شفيق ، و«كولن ولسون» في كتابه «سقوط الحضارة» ، وغيرهم .

لقد سرق ثرواتها سرّاً وعلانية ، ليكوّن منها رصيداً ضخماً لثروته الكبرى . لقد أفقرها ليغتني هو . إنها اللصوصية بعينها .

لقد قتل الآخرين ليحيا ، صنع من جماجمهم حجارة لبناء رفاهيته ، وزخرف أبنيته بدمائهم .

واليوم ، ونحن نسعى إلى التنمية بكل طاقاتنا ، هل يلزمنا أن نقلد هذا النموذج ، ونتخذه إماماً ؟

إن واجبنا أن نضعه على مشرحة التحليل ، لنعرف مكوّناته ، ونحلله إلى عناصره الأولية ، فنأخذ منه ما ثبت نفعه ، ونتجنب ما ثبت ضرره وإثمه ، أو ما كان إثمه أكبر من نفعه . وأن نُحوِّر فيه ونُعدِّل حتى يلائمنا .

إن التنمية التي نتبناها هي التنمية بمفهومها الشامل ، الذي يعتبر الإنسان هدف التنمية ووسيلتها في آنٍ واحد ، والذي يهدف إلى تنمية الإنسان كله : جسمه ، وعقله ، وعاطفته ، وروحه وضميره . الإنسان فرداً ، والإنسان مجتمعاً ؛ الإنسان طفلاً ، والإنسان شابّاً والإنسان شيخاً ؛ الإنسان رجلاً ، والإنسان امرأة ؛ الإنسان الأبيض ، والإنسان الأسود ، والإنسان الملوّن .

* * *

٢ـ العلم والتكنولوجيا

إن أهم مقتضيات المعاصرة ، وبعبارة أخرى : أهم ما نأخذه من «العصر» هو : العلم وتطبيقاته «التكنولوجية» ، العلم بمعناه الحديث ، القائم على الملاحظة والتجريب . العلم الطبيعي والرياضي ، إلى آخر مدىً وصلا إليه . العلم الذي أوصل الإنسان إلى غزو الفضاء ، وصنع الحاسوب (الكومبيوتر) والهندسة الوراثية ، التي انتهت إلى مرحلة يعبرون عنها بـ «الثورة البيولوجية» .

إننا إذا قلنا : إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا تمنعنا من أخذ هذا العلم والاقتباس منه والانتفاع به ، نكون قد ظلمنا أصالتنا .

فالواقع أنها توجب علينا ذلك إيجاباً ، من أكثر من جهة :

١- من جهة أن من فروض الكفاية على الأمة التي لا خلاف عليها أن تتقن كل علم تحتاج إليه في دينها أو دنياها ، وأن يكون لديها من المتخصصين والخبراء فيه ما يقوم بكفايتها ، ويغنيها عن غيرها .

وفرض الكفاية هو ما يجب على الأمة في مجموعها وجوباً تضامنياً ، بحيث إذا قام به عدد كافٍ سقط الإثم عن سائر الأمة ، وإلا أثمت كلها .

٢- ومن جهة أن الأمة مطالَبة بأن تكون في مكان الأستاذية للأمم ، التي يعبر عنها القرآن بـ «الشهادة على الناس» ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿**وكذَلِكَ جعَلْناكم أُمَّةً وسَطاً لِّتَكُونواْ شُهَداءَ على النّاسِ ويَكونَ الرَّسولُ عليكُمْ شَهِيداً**﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وهذه المكانة التي بوأها القرآن للأمة توجب عليها أن تتفوق في

كل ما يعزز مكانتها ، ويعينها على أداء رسالتها الحضارية ، وفي مقدمة ذلك العلم الذي جلعه الله المرشح الأول لاستحقاق الإنسان منصب الخلافة في الأرض كما تدل على ذلك آيات : ﴿**وإذْ قال ربُّكَ للْملائكَةِ إنّي جاعلٌ في الأَرضِ خَليفَةً قالواْ أَتجعلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونَحنُ نُسبِّحُ بحَمدِكَ ونُقدِّسُ لك قال إنّي أَعلمُ ما لا تَعلَمونَ * وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضهم على المَلائكَةِ فقال أَنْبئُوني بأَسماء هَؤُلاَء إن كُنْتم صادِقِينَ * قالواْ سُبحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمتَنا إنَّكَ أَنت العَليمُ الحَكيمُ * قال يا آدَمُ أَنبئْهم بأَسمائِهم فلمّا أَنبَأَهم بأَسمائِهم قال أَلَمْ أَقُلْ لَّكم إنّي أَعلمُ غَيْبَ السمَواتِ والأَرضِ وأَعلمُ ما تُبْدونَ وما كُنْتم تَكْتمونَ**﴾ [البقرة : ٣٠- ٣٣] .

فلايجوز للأمة المسلمة أن تظل عالة على على غيرها ، وأن ترضى بالبقاء في ذيل القافلة البَشرية وموضعها في الطليعة .

٣- ومن جهة أن الأمة يجب أن تكون سيدة في أرضها ، لا سلطان لأحد عليها ، فهي بالإسلام تعلو ولا تُعلى ، وتحكم ولا تُحكم . ويجب لذلك أن تُعِدَّ لأعدائها القائمين والمتحملين ما استطاعت من قوة ، دفاعاً عن حرماتها ، وذوداً عن دعوتها ، وتمكيناً لحضارتها ، وإرهاباً لعدو الله وعدوها .

وإذا كان العلم والتكنولوجيا التي هي ثمرته وسيلة لازمة لذلك ، كان من الواجب الحتمي شرعاً اكتساب هذا العلم وكل ما يؤهل له ويعين عليه ، تطبيقاً للقاعدة الشرعية المتفق عليها ، وهي : «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» .

٤- ومن جهة رابعة : أن العلم الحديث ييسر على الإنسان

كثيراً من أمور حياته ، ويساعده على أداء واجباته ، في وقت أسرع ، وبجهد أقل ، وبصورة أفضل ، ويسهل له أشياء لم يكن يحلم بها من قبل مجرد حلم .

ولا يجوز أن يحرم المجتمع المسلم ، ولا الفرد المسلم من ثمرات هذا كله ، بل هو أولى الناس بالاستفادة من هذا العلم ، الذي يعتبره نعمة من الله الذي : ﴿عَلَّمَ الإِنسانَ ما لَمْ يَعلَمْ﴾ [العلق : ٥] . والذي يجب أن يشكر الله تعالى عليها ، وشكر النعمة باستخدامها فيما خلقت له ، مما يحبه الله تعالى ويرضاه ، لا مما يكرهه ويسخطه .

ثم إن الله تعالى يريد بالناس اليُسر ، ولا يريد بهم العُسر ، والشريعة تأمر بتحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة ، فإذا ثبت أن وراء هذا العلم تيسيراً ومصلحة فهو مطلوب شرعاً .

وقد استخدم المسلمون هذا العلم في طباعة المصاحف والكتب الدينية ، ونشر العلم وتعليم الدين ، وتسهيل أداء عباداته ، مثل فريضة الحج ، وغيرها . واليوم يجتهدون في استخدام «الكومبيوتر» في خدمة السُّنّة النبوية والعلوم الشرعية واللغوية ، فهو عون على الدين والدنيا .

٥- ومن جهة خامسة : أن هذا العلم الذي نأخذه اليوم من الغرب ، قد أخذه الغرب بالأمس منا ، من حضارتنا . وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم ، فهو إذن بضاعتنا تُردّ إلينا ، ولسنا بالغرباء عنه ، ولا الدخلاء عليه .

صحيح أن العلم المعاصر لم يعد هو العلم الذي اقتبسه الغرب منا قديماً ، فقد خطا خطوات واسعة ، وقفز قفزات هائلة ، من عصر الصناعة الأول إلى عصر الصناعة الثاني ، إلى ما نراه اليوم من

تكنولوجيا متطورة ، ومن نتائج بعيدة المدى ، ومن طموحات تكاد تغيّر وجه الحياة . ولكن أصول هذا المنهج العقلية والعلمية أصول إسلامية ، وقد قيل : «الفضل للمبتدي ، وإن أحسن المقتدي» .

ومهما يكن الأمر في أصل هذا العلم ومصدره ، فهو الآن في صورته الأخيرة علم غربي ، شئنا أم أبينا ، وهو كذلك أحد مستلزمات العصر ، ولا معاصرة لنا إذا لم نعبَّه عبّاً ، لا يكفينا منه مجرد الارتشاف ، لا بد من الوصول إلى درجة «الإحسان» في هذا العلم ، فإن الله كتب الإحسان على كل شيء .

* *

● شراء التكنولوجيا :

ولا ينفعنا هنا ما زعمه بعضهم يوماً : أننا يمكننا بأموالنا التي هيأها لنا النفط وغيره أن نشتري التكنولوجيا من أي مكان في العالَم ، ونستخدمها كما نريد ، ونوظفها في إنهاض أوطاننا ، وتطوير أوضاعنا ، وتحقيق طموحاتنا التنموية .

فالواقع أن التكنولوجيا التي تُشترى لا تُطوِّر المجتمع ، ولا تنقله إلى العصر ؛ بل تساعده على الاستهلاك لا الإنتاج ، والتقليد لا الإبداع ، وتغيير المظهر لا الجوهر ، والمبنى لا المعنى .

والذين يبيعوننا التكنولوجيا ليسوا بلهاء ، بحيث يبيعوننا ما يجعلنا نستغني عنهم ؛ إنما يعطوننا البعض لا الكل ، والفرع لا الأصل ، حتى نظل مربوطين بهم ، مشدودين إليهم ، مفتقرين إلى عونهم .

ولايزال الناس يذكرون في الخليج تلك المدينة الخليجية الكبرى التي تعطلت فيها إحدى محطات الكهرباء الرئيسة ، فعاش نحو ثلث سكانها

محرومين من كل آثار الكهرباء في الحياة الحديثة : لا ثلاجة ولا مكيف ولا مروحة ، ولا مصعد ولا تلفاز ، ولا . . ولا . . حتى أرسل المصنع أو الشركة التي اشتريت منها المحطة الخواجة المهندس الذي أصلحها!

إن التكنولوجيا المطلوبة هي التي تُستنبت في أرضنا ، وتنمو بنمونا ، وتتفاعل مع واقعنا ، وتمدها عقول أبنائنا ، وتحملها سواعدهم . ونحن لها أهل إذا استبانت الوجهة ، واتضح السبيل . والدين أعظم ما يعيننا على ذلك إذا أحسنا فقهه ، وعملنا بتوجيهه .

* *

● لا تناقض بين النقل والعقل :

وما أوهمه بعض الكُتَّاب من أن البيئة الدينية لا تهيئ لمناخ علمي مزدهر ، بافتراض وجود صراع بين النقل والعقل ، أو بين النص الإلّهي والاجتهاد الإنساني ، غير صحيح ، بل ترده النصوص ، ويرده التاريخ ، ويرده الواقع ؛ فالعقل هو المخاطَب بنص الشارع ، والمكلَّف بفهمه والعمل به ، والاجتهاد في دلالته ، وملء الفراغ فيما لا نص فيه . وقد ترك النقل أو الوحي للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول ، ولم يحجر عليه في ذلك بل أمره وحرَّضه ودعاه .

والمحققون من علماء الأمة اعتبروا الوحي والعقل هاديين للخلق إلى الحق . يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة» :

«لله عَزَّ وجلَّ إلى خلقه رسولان ، أحدهما : من الباطن وهو العقل ، والثاني : من الظاهر وهو الرسول ، ولا سبيل لأحد إلى

الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كانت تلزم الحُجَّة بقوله ، ولهذا أحال الله مَن يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها .فالعقل قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً ، واجتماعهما كما قال الله تعالى : ﴿**نُورٌ عَلَى نُورٍ**﴾» (١).

ويؤكد ذلك معاصر الراغب الإمام أبو حامد الغزالي في عدد من كتبه . ففي مقدمة «المستصفى» يعتبر العقل القاضي الذي لا يُعْزَل ولا يبدَّل ، والشرع الشاهد المزكّى المعدّل ، ويجعل العقل مركب الديانة وحامل الأمانة(٢) .

وفي «الإحياء» يقرر أن لا غنى بالشرع عن العقل ، ولا بالعقل عن الشرع «فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء» ، وينكر على مَن يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن . وهو في رأيه ظن صادر عن عمىً في عين البصيرة(٣) .

وفي «الاقتصاد في الاعتقاد» يصف عصابة الحق وأهل السُّنَّة أنهم الذين وفّقوا بين مقتضيات الشرائع ، وموجبات العقول ، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول(٤) .

---

(١) النور: ٣٥، وانظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» ص ٢٠٧ بتحقيق د. أبو اليزيد العجمي، طبع دار الصحوة بالقاهرة.

(٢) المستصفى : ١/ ٣ .

(٣) الإحياء : ٣/ ١٧ ، طبع دار المعرفة ، بيروت . ويلاحظ أن الراغب في «الذريعة» يرى الشرعيات كالأغذية ، والمعقولات كالأدوية ، باعتبار آخر ص ٢٠٨ .

(٤) من مقدمة كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي .

وفي كتاب «معارج القدس» الذي يُنسب للغزالي نقرأ هذه الكلمات :

«اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل . فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء ، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ» .

وأيضاً ، فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر ، فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان ، بل متحدان[1] . ولا غرو أن وجدنا في تاريخ حضارتنا كثيراً ممن نبغوا في المجالين : العلوم الشرعية ، والعلوم العقلية . ومن هذه العلوم العقلية : العلوم الطبيعية . والرياضية والطبية .

فجابر بن حيان يسمى جابراً الصوفي .

والخوارزمي مبتكر علم الجبر ، إنما وصل إليه ، وهو يؤلف رسالة في فقه الوصايا والفرائض .

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب «الكليات» في الطب الذي تتلمذت عليه أوروبا عدة قرون ، هو نفسه صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن ، وهو قاضٍ شرعي من فقهاء المالكية .

والفخر الرازي صاحب «التفسير الكبير» والكتب الشهيرة في علم أصول الفقه وعلم أصول الدين ، كان من أشهر الأطباء في زمنه ، ولم تكن شهرته في الطب تقل عن شهرته في علوم الدين .

---

(١) «معارج القدس» ص ٥٧ ، طبع دار الآفاق الجديدة ، بيروت . وانظر : تعليقنا عليه في كتابنا «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» ص٤١ .

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وأول مَن أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية ، هو أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكي في «طبقاته» ، وترجم لهم الذهبي وغيره من مؤرخي الأعلام في الإسلام[1] .

* *

● **استخدام أسلوب الإحصاء :**

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور ، وهو فارق مميِّز بين العلميين والعشوائيين ، أو الغوغائيين من الناس ، فإن النبي ﷺ قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة .

فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : «احصوا لي كم يلفظ الإسلام» .

وفي رواية للبخاري أنه قال : «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» قال حذيفة : فكتبنا ألفاً وخمس مئة . . .[2] الحديث .

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته ، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البَشرية الضاربة ، التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به ، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط ، أي القادرين على القتال .

---

(١) انظر في تراجم هؤلاء : «الأعلام» للزركلي .

(٢) انظر «جامع الأصول» : ١٠/١٠٠ ، حديث رقم (٧٥٧٠) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

والإحصاء الذي تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة ، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر ، يرينا إلى أيّ حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية .

وفي مقابل هذا نجد في «العهد القديم» : أن أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم! كأنما «الإحصاء» يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلَهية . وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن تعاليم «التوراة» ، والكتاب المقدس لا تتيح مناخاً مناسباً لإنشاء عقلية علمية .

* *

● **التخطيط :**

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك ، بل هو أوضح دلالةً عليها ، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء ، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل ، وتحقيق الأهداف المنشودة .

ومِنَ الناس مَنْ يتصوَّرون أو يصوِّرون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل . وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان ، فهما ضدَّان لا يجتمعان ، أو خطَّان متوازيان لا يلتقيان .

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل . ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده ، وبعبارة أخرى من حياته لموته ، ومن دنياه لآخرته ولا بد له أن يخطط حياته ، ويضع لنفسه في ضوء الوحي منهاجاً يوصله إلى الغاية ، وهي

رضوان الله ومثوبته .

وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب ، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاماً ، لمواجهة أزمة غذائية عامة . عرف يوسف بما ألهمه الله ، وعلّمه من تأويل الأحاديث أنها ستصيب المنطقة كلها ، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة . ووُكل إليه تنفيذُها ، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها : ﴿**قال تَزْرَعونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فما حَصَدتُّمْ فَذَروهُ فِي سُنْبُلِه إلاَّ قليلاً مِّمَّا تَأْكُلونَ * ثُمَّ يأْتي مِن بَعدِ ذَلكَ سَبْعٌ شِدادٌ يأْكُلْنَ ما قدَّمْتم لهنَّ إلا قليلاً مِّمَّا تُحصِنون * ثُمَّ يأتي مِن بعدِ ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ وفِيه يَعْصِرونَ**﴾ [يوسف : ٤٧-٤٩] .

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على الله ، أو الإيمان بقضائه ، وقدره ؛ ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط ، فضلاً عن أن يوجه إليه ، أو يحث عليه .

والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله ، وسُنَّة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية ، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابط ، ولا رابط ولانظام . وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعني اطّراح الأسباب أو إغفال السنن ، التي أقام لله عليها نظام هذا الوجود ، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ ، وترك ناقته أمام المسجد قائلاً : يارسول الله ، أأعقلُ ناقتي وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ فقال له :

«اعقلها وتوكل»[1] .

وقال الإمام الطبري يرد على مَن زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل : الحق أن مَن وثق بالله ، وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ ، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب ؛ اتباعاً لسُنَّته وسُنَّة رسوله ، فقد ظاهر ﷺ بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشِّعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[2] .

ومَن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام ، وجد أنه كان يُعِد لكل أمر عُدَّته ، ويهيّئ له أسبابه وأهبته ، آخذاً حذره ، مقدِّراً كافة الاحتمالات ، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى .

فهو حين أمر أصحابه بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم بالهجرة إلى الحبشة ، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً ، أو رمية من غير رامٍ ، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية ، والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت .

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس ، وقال : غريب أي ضعيف ، وأنكره يحيى القطان ، لكن أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمري ، وإسناده كما قال الزركشي : صحيح ورواه عنه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه بلفظ : «قيِّدها وتوكل» ، وإسناده كما قال الزين العراقي : جيد انظر : «فيض القدير» ص٧ ، حديث رقم (١١٩١) ، وانظر الحديث وتخريجه في «الإحسان» الجزء الثاني حديث رقم (٧٣١) ، طبع الرسالة .

(٢) نقله الشوكاني في «نيل الأوطار» : ٩٢/٩ ، طبع دار الجيل بيروت .

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان مهماً بَعُد ، في شبه جزيرة العرب ، فإن قريشاً بما لها من نفوذ ديني وأدبي تستطيع أن تلاحقهم .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفُرْس أو الروم ، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيداً إلى بلاد مثل الهند والصين ، حيث تنقطع أخبارهم ، وتكون الهجرة مهلكة لهم .

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافياً ، فهو ليس جدَّ بعيد ، ولا جد قريب ، بل بينه وبين قريش بحر .

وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينياً ، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعدّون أقرب مَوَدَّةً للمسلمين .

وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسيّاً ، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنَّصَفَة ، ولهذا قال الرسول لأصحابه : «إن بها ملكاً أرجو ألا تُظلموا عنده» .

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالَم من حولهم ، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض .

ويدل على ذلك أيضاً موقفهم من حرب الفُرْس والروم ، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا ، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم : ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * في أَدنَى الأَرضِ وهم مِّن بَعدِ غَلَبِهم سيَغْلِبونَ**﴾ [الروم : ٢-٣] .

وهكذا . . فقد كانوا وهم في فجر الدعوة ورغم الضعف

والاضطهاد على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العظمَيين في ذلك العصر ، أو المعسكرين الكبيرين : الشرقي والغربي .

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ في هجرته إلى المدينة ، ففيها يتجلى التخطيط العلمي ، والتوكل الإيماني جنباً إلى جنب .

فلقد أعدّ عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البَشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات .

ولقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه ، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية ، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم .

واطمأن إلى الرفيق الذي سيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار ، وما تحمله من مفاجآت ، ولم يكن هناك أفضل من أبي بكر رفيقاً .

واطمأن إلى الفدائي الذي سيبيت مكانه ، مُعرِّضاً نفسه لاحتمالات الخطر ، وغدرات المتربصين ، ولم يكن ثَمَّ أفضل من عليٍّ ابن عمه أبي طالب فارس الإسلام لهذه المهمة .

ورتب الدليل الخِرِّيت الذي على الطريق ، وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين ، كان مشركاً أميناً ، هو عبد الله بن أريقط . وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية ، مع الاطمئنان والأمان .

وهيأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه ودليله في سفرهم الطويل ، واتفقوا على المكان والموعد الذي يستقلون به الركائب .

وتخيَّر المخبأ الذي يختفي فيه أياماً معدودة ، حتى تخف حدة الطلب ، ويتملك القوم اليأس ، واختاره في غير طريق المدينة ، زيادة

في التعمية على القوم فكان غار «ثور» .

وأعد فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد ، والأنباء ، خلال أيام الاختفاء ، فكانت أسماء وعبد الله بن أبي بكر ، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، يأتي بغنمه فيحلبون منها ، ويعفّي على آثار أسماء وعبد الله .

خطة محكمة الحلقات ، متقنة التدبير ، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ ، ولا ثُغرة دون أن تُسد ، ووضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته ، فدور أبي بكر ، غير دور عليّ ، غير دور أسماء ، وكل في موقعه الصحيح .

ومع هذا الإحكام الدقيق ، كادت الخطة تخفق ، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار ، ويقفوا على بابه ، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة ، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه ، فيرى الرسول وصاحبه في الغار ، وهذا ما خشيه أبو بكر ، وصرّح به للرسول ﷺ حين قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة : «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» ؟ ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق ، فبعد أن يبذل الإنسان ما في وسعه ، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه ، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر ، لله وحده . وهنا تقع ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ موقعها وتؤتي أُكلها[1] .

* *

(١) انظر كتابنا : «الرسول والعلم» ص ٤٣- ٤٨ ط. الرسالة والصحوة .

● **واقعنا المرّ لا يمثل أصالة ولا معاصرة :**

على أن واقعنا اليوم يؤكد أننا نعيش خارج عصرنا ، فلا نزال حتى الآن مستوردين لمنتجات الغرب ، نشتري أغلى الأجهزة وأفخر السيارات المشتملة على كل الكماليات التي قد تُصنع لنا خاصة وبطلب منا ونركب أحدث الطائرات ، ولكنّا لا نصنع شيئاً من هذا كله . لم نصنع محركاً (موتور) لطيارة ولا سيارة ولو صغيرة . ولذلك لو كفّ الآخرون أيديهم عنا ، ما تحرَّك لنا مصنع ، ولا حلّقت بنا طائرة ، ولا سارت بنا سيارة .

في بعض بلاد الخليج توقفت الحياة في نصف المدينة الكبيرة لأن إحدى ماكينات الكهرباء الكبرى توقفت ، ولا يوجد مَن يصلحها ؛ لا بد من خبير من بلادها التي صنعتها ، ومن المصنع الذي صدَّرها!

التكنولوجيا لا تُشترى من الخارج ، وإنما تُصنع في الداخل .

قلت في عدد من كتبي ولا أزال أقول وأكرر : إن أمة «سورة الحديد» لم تتعلم بعدُ صناعة الحديد . فد قال تعالى : ﴿**وأنزَلْنا الحَديدَ فيه بَأْسٌ شَديدٌ ومنافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ [الحديد : ٢٥] .

وقوله : ﴿**فيه بَأْسٌ شَديدٌ**﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية ، وقوله : ﴿**ومنافِعُ للنَّاسِ**﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية . ونحن للأسف لم نتقن أيًا منهما .

لقد صنع الغرب «الكومبيوتر» وطوَّر أجيالاً منه ، جيلاً بعد جيل ، حتى وصل اليوم إلى ما وصل إليه من مكنة وقدرة وسرعة ، مع صغر الحجم وقلة النفقات ، ولا يزال يبدع ويطوّر ويحسّن . ونحن العرب إلى اليوم مختلفون في مجرد تسميته : أهو العقل الإلكتروني ، أم الدماغ الإلكتروني ، أم الحاسب الآلي ، أم الحسَّابة أم

المحساب أم الحاسوب ؟ ؟!!

لقد ذكرت في كتابي «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» الشروط اللازمة للخروج من سجن التخلف ، والدخول في عصر التكنولوجيا المتقدمة . وهي شروط بعضها يتعلق بالأصالة ، وبعضها يتعلق بالمعاصرة ، وبعضها يتعلق بكلتيهما .

ولا أود أن أعيد ما كتبته ، ولكن أنبه عليه للرجوع إليه في موضعه ، إن كنا جادين حقاً ، أن ندخل العصر ، ونلحق بالركب ، ونسد الفجوة بيننا وبين عالَم اليوم .

إن الذي نحن فيه لا يمثّل أصالة ، ولا يمثّل معاصرة . إنه التيه والضياع . إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا يُتصور بحال أن تكون حائلاً بيننا وبين التقدم العلمي والتكنولوجي ، كما توهم كتابات بعض «المتطرفين» العلمانيين ، الذين يلهثون جاهدين للبحث عن نقطة ضعف فيما يكتبه بعض الإسلاميين . فإذا عثر على ذلك في كتاب مغمور ، أو مقال في صحيفة أو نحو ذلك ، طار به كل مطار ، واتخذ منه حُجَّةً لتوهين الموقف الإسلامي كله .

لقد زعم مَن زعمَ مِن هؤلاء : أن الإسلاميين يعتمدون في بيان موقفهم من العلم على فكرة الإعجاز العلمي في القرآن ، ويتمحلون لذلك تمحلات كثيراً ما تكون متعسفة وممجوجة .

وتصوير الموقف الإسلامي بمثل هذا غير عادل ، وغير صحيح . فقد ذكرنا من الوجوه الموجبة لأخذ العلم المعاصر من أي وعاء كان ، ما فيه الكفاية . ونزيد على ذلك أن الإسلام يدعو إلى العلم بأكثر من أسلوب في قرآنه وسُنّته ، وينشئ «العقلية العلمية» التي ترفض الخرافات والأوهام والعواطف ، وتطالب بالنظر والتفكير والتدبر ، وتنكر التقليد والجمود على ما

كان عليه الآباء ، أو السادة الكبراء ، وتحكّم البرهان والدليل في كل شيء : الدليل المنطقي العقلي في العقديات والعقليات ، ودليل المشاهدة في الحسيات والتجريبيات ، والتوثيق النقلي في المسموعات والمرويات .

وهذا ما فصّلناه في كتبنا ، وأقمنا عليه الأدلة من كتاب الله تعالى ، ومن سُنّة رسوله ﷺ(١) .

إن أصالتنا الإسلامية هي التي تهيئ لنا أفضل مناخ نفسي وعقلي ، يمكن أن تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوجية راسخة ، يقوم عليها مجتمع يرى هذه النهضة عبادة وفريضة وضرورة . وهذا المناخ هو الذي ترعرعت في ظلاله حضارتنا العربية الإسلامية ، التي مزجت بين الدين والدنيا ، وجمعت بين العلم والإيمان ، ووصلت الإبداع المادي بالسمو الروحي والخُلُقي .

وهذا ما يجب أن نحرص عليه حين نسعى للحصول على علم العصر وتكنولوجيا العصر : أن نربط ذلك بقيم الإيمان والدين والأخلاق ، حتى لا يكون العلم معول دمار ، بل أداة عمار ، وألا يعين الإنسان على عمارة دنياه بخراب آخرته ، وإشباع شهواته البهيمية ، بجوع روحه الإنسانية .

* * *

(١) انظر في ذلك كتابنا «الرسول والعلم» ، فصل «الرسول والعلم التجريبي» ، واقرأ تحت عنوان «علمية لا علمانية» من كتابنا «الإسلام والعلمانية» .

٣ـ النظرة المستقبلية

ومن مقتضيات المعاصرة ألا يستسلم الإنسان لظروف حاضرِه ، بل يتطلع دائماً إلى المستقبل . ومهما يضغط عليه الواقع بهمومه الآنيّة ، ومشكلاته اليومية ، وجراحه المستمرة في النزيف فإنه يرنو إلى الغد ، ويستشرف للمستقبل ، يعدّ له العُدَّة ، ويأخذ له الحيطة ، محاولاً أن يسد ما يتوقع من ثغرات ، وأن يعالج ما يطرأ من آفات ، وأن يغرس نواة اليوم لتصبح نخلة أو شجرة زيتون بعد سنوات ، وأن يفكر ماذا سيواجه الأبناء والأحفاد في الأجيال القادمة ، وما الأخطار التي ترتقبهم ؟ والآمال التي يرتقبونها ؟ وهل في الإمكان أن ندخر من يومنا لغدنا ، أو لغد ذرارينا من بعدنا ، وأن نقيهم بعض ما أصابنا من محن ؟ وما غشينا من فتن ؟ وما حلّ بنا من كوارث لم نأخذ لها الأهبة ؟

وهل يمكن للإنسان أن يطمح إلى مستقبل تغلب فيه الآمالُ يأسَ اليائسينَ ، وتجف فيه دموع البائسين ، وينتصر فيه الخير على الشر ، والعدل على الظلم ، والرخاء على الفقر ، والعلم على الجهل ، والتسامح على التعصب ؟

إن من سمات عصرنا التطلع إلى المستقبل ومحاولة استشفافه ، أو توقع ما يمكن أن يحدث فيه ، لا عن طريق الكهانة والتنجيم ، بل عن طريق الدراسة والرصد ، وبناء النتائج على المقدمات ، والمسببات على الأسباب ، كما تفعل «الأرصاد الجوية» بالنسبة للرياح والأمطار والحرارة والبرودة .

يقول الدكتور المهدي المنجرة وهو أحد المهتمين البارزين من العرب بهذا اللون من الدراسة :

«إن الدراسات الاستقبالية تُعَد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالَمية الثانية ، وأول مَن باشرها مؤسسة «راند» بناء على طلب البنتاجون في عام ١٩٤٧ ، ولم تشهد انطلاقتها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات» .

وقد تتبع زكي نجيب محمود في مقاله «المستقبل المحسوب» بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين . وتحدث قسطنطين زريق في كتابه «نحن والمستقبل» عن هذا النمط العلمي الريادي المعاصر في الاهتمام المستقبلي ، الذي يتميز بصفته العلمية ، وبتمسكه بالمنطق الاختباري ، وبأنه جهد جَماعي رآه ينتسب إلى عالَمنا المعاصر .

ويعلق الدكتور أحمد صدقي الدجاني في بحثه القيم : «دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة»[1] بقوله :

واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث وثيق الصلة بثورة العلم التقني التي تفجرت في عالَمنا المعاصر هذا ، وأثمرت ثورة في الاتصال وثورة في المعلومات ، وأحدثت تحولات وتحولات . وقد أورد «هوج ستيوارت» في كتابه «تذكّر المستقبل» تسعة تحولات تحدَّث عنها «جون نيسبت» ١٩٨٢ ، وسماها توجهات عظمى «تحول من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي ، انتقال من انقياد للتقنية إلى استجابة إنسانية لها ، انتقال من ضيق الاقتصاد القومي إلى شمول الاقتصاد العالَمي ، تحول من المركزية إلى اللامركزية ، تزايد الاعتماد على الذات في مقابل الاعتماد على المؤسسات ، التحول من ديموقراطية الإنابة إلى ديموقراطية المشاركة ، تحول من نظام هرمي إلى

(١) نشرته مجلة «المسلم المعاصر» في عددها الثاني والستين : نوفمبر ، ديسمبر سنة ١٩٩١ ، يناير سنة ١٩٩٢ .

نظام شبكي ، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة ، تحول من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة» .

ولما كانت ثورة العلم التقني قد تفجرت في الغرب ، فإن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك . وقد أولتها عناية خاصة المؤسسات العسكرية والشركات متعددة الجنسيات عابرة القارات . وهكذا بدت الصلة وثيقة بين الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيجية .

كان طبيعياً أن يجري بحث عن اسم يُطلق على هذه الدراسة المستقبلية التي ظهرت بمعناها الحديث ، وأن يجتهد المشتغلون بها فيطلقوا عليها هذا الاسم أو ذاك ؛ وهكذا ظهر اسم «المستقبلية» ، ولم يلبث «جاستون بيرجر» الفرنسي أن سماها عام ١٩٦٠ «علم الريادة» . ثم استخدم «أوسيب فليشتم» الألماني عام ١٩٦٦ اسم «علم المستقبل» في كتابه «علم التاريخ وعلم المستقبل» ، وهناك مَن سماها «علم حساب المستقبل» .

وإن كان الدكتور الدجاني يتحفظ على اعتبار ذلك علماً ، بل يراه استشرافاً وتشوفاً ورؤية ؛ فهل يتسع صدر الإسلام – عقيدة وشريعة وفكراً – لهذا النوع من التوجه المستقبلي ؟ أو يضيق به ويغلق الباب دونه ؟

إن كثيراً ممن لم يتعمقوا في فهم الإسلام يحسبون أن الدين عامة – والإسلام خاصة – لا يرحب بالنظرة المستقبلية ، التي تستوجب استشراف الغد ، والتخطيط له ، والإعداد لما عسى أن تتمخض عنه الليالي والأيام .

وذلك لأن الدين في نظرهم يربط الإنسان بماضيه وتراثه ، الذي

غالباً ما يُنظر إليه نظرة فيها لون من «التقديس» ، الذي يحيله إلى «قفص» يحول دون حركته وانطلاقه ، وإن كان في نظره قفصاً من ذهب! أما المستقبل فهو بيد الله ، وهو غيب لا يعلمه إلا الله . ولا دخل للإنسان في توجيهه . وإنما يفرضه عليه القدر الأعلى من فوق ، دون أن يكون له كسب أو اختيار .

هكذا يفكر بعض المتدينين ، وخصوصاً العوام ، وأشباه العوام . وأقصد بأشباه العوام كثيراً من الجامعيين ، وكبار المتعلمين ، الذين لا يتميزون كثيراً في أفكارهم الدينية عن العوام والأميين ، وإن كانوا في تخصصاتهم من المرموقين ، الذين قد يُشار إليهم بالبنان!

وهذا اللون من التفكير هو الذي يعتمد عليه جماعة العلمانيين في تصوير النظرة الإسلامية للمستقبل .

ومَن أراد أن يعرف النظرة الإسلامية للمستقبل فليعرفها من القرآن الكريم والسنّة النبوية . كما أوجزتُ بيان ذلك في بعض كتبي[1] .

* *

● القرآن الكريم والمستقبل :

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد المكي يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرتجى ، ويبيِّن لهم أن الفلك يتحرك ، والعالَم يتغير ، والأحوال تتحول ، فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد يُهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور ، سواء أكان ذلك على المستوى المحلي أم العالَمي .

وعلى المسلمين ، أن يهيئوا أنفسهم ، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض

(١) « أولويات الحركة الإسلامية» ص١٢١-١٢٤ ، طبع الرسالة .

عنه الغد القريب أو البعيد ، فكل آتٍ قريب .

نقرأ سورة «القمر» المكيَّة ، فنجد فيها قول الله تعالى عن المشركين ، وهم أولو القوة والشَّوْكة ، والعدد والعُدَّة : ﴿**سَيُهْزَمُ الجَمعُ ويُوَلّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السّاعَةُ موْعِدُهم والسّاعَةُ أَدْهى وأَمَرُّ**﴾ [القمر : ٤٥-٤٦] .

ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿**سيُهزَمُ الجَمعُ ويُوَلّونَ الدُّبُرَ**﴾ قال عمر : أيّ جمع يُهْزَمُ ؟ أيّ جمع يُغْلَب ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع ، وهو يقول : ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ فعرفت تأويلها يومئذ(١) .

وروى البخاري عن عائشة قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة ، وإني لجارية ألعب : ﴿**بَلِ السّاعَةُ موْعِدُهم والسّاعَةُ أَدهَى وأَمَرُّ**﴾(٢) .

فكان المقصود بهذا الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة ، والنفسية المسلمة ، للتغير الحتمي ، والغد المرتقب .

وعلى المستوى العالَمي نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع التاريخي بين الدولتين العُظميين : فارس والروم وقد كان صراعاً اهتم له الفريقان في مكة : المسلمون والمشركون ـــ فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب ، على الفُرْس المجوس عُبَّاد النار ، وأنهم وإن غُلِبوا اليوم سيَغلِبون في بضع سنين ، وفي هذا تقول السورة جازمة : ﴿**آلـمّ * غُلِبتِ الرّومُ * في أَدنى الأَرضِ وهم مِّن بَعدِ غَلَبِهِمْ سيَغْلِبونَ * في بِضْعِ سِنِينَ**

(١) تفسير ابن كثير : ٢٦٦/٤ ، طبع الحلبي .

(٢) المصدر السابق .

لِلَّهِ الأَمرُ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ ويومَئِذٍ يفْرَحُ المُؤْمِنونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَّشاءُ وهو العَزيزُ الرّحيمُ﴾ [الروم : ١-٥] .

هذا الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى تدلنا على أمرين :

١- مدى وعي المجموعة المسلمة على قِلَّتها وضعفها المادي بأحداث العالَم الكبرى ، وصراع العمالقة من حولها ، وأثره عليها إيجاباً وسلباً .

٢- تسجيل القرآن لهذه الأحداث ، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير ، والانتقال من الواقع إلى المتوقع في ضوء السنن .

وفي سورة المزمّل المكيَّة نقرأ الآية الأخيرة من السورة التي تتضمن تخفيف الله عن نبيه ﷺ ومَن معه في قيام الليل وقراءة القرآن ، لما ينتظرهم من مهام جسيمة في المستقبل ، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل الله ، فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم .

يقول تعالى : **﴿إِنَّ ربَّكَ يَعلمُ أَنَّكَ تقومُ أدنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيلِ ونِصفَهُ وثُلُثَه وطائِفةٌ مِّنَ الذِينَ معكَ واللهُ يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فتابَ عليكم فاقْرَءُواْ ما تَيسَّرَ مِنَ القُرآنِ عَلِمَ أَنْ سيَكونُ مِنكم مَّرضَى وآخَرونَ يَضْرِبونَ في الأَرضِ يَبتَغونَ مِن فَضْلِ اللهِ وآخَرونَ يُقاتِلونَ فِي سبيلِ اللهِ فاقْرَءُواْ ما تَيسَّرَ مِنهُ﴾** [المزمل : ٢٠] .

وفي القرآن آيات كثيرة تتحدث عن المستقبل ، حاملة البُشرى والأمل للأمة بظهور الدين ، والتمكين له ، واستخلاف أهله في الأرض ، وبروز آيات الله في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين الحق .

﴿هو الذِي أرسَلَ رسولَهُ بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ

كُلِّه﴾ [التوبة : ٣٣ ، والفتح : ٢٨ ، والصف : ٩] .

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهم دينَهم الذِي ارْتَضَى لَهم وَلَيُبَدِّلَنَّهم مِّن بعدِ خَوْفِهم أَمْناً﴾ [النور : ٥٥] .

﴿وَقُلِ الحَمدُ للهِ سيُرِيكم آيَاتِه فتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل : ٩٣] .

﴿سنُرِيهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهم أَنَّه الحَقُّ﴾ [فصلت : ٥٣] .

* *

● **الرسول والمستقبل :**

وفي السُّنَّة النبوية أحاديث جمَّة تتحدث عن المستقبل كذلك ، وهي التي تُذكر عادة في أبواب «الفتن» و«الملاحم» ، و«أشراط الساعة» .

والانطباع العام عند كثيرين عن هذه الأحاديث أنها توحي بالتشاؤم واليأس من المستقبل ، وانتصار الشر على الخير ، والضلال على الهدى . وهو انطباع لا يقوم على استقصاء هذه الأحاديث وتأملها ، وموازنة بعضها ببعض ، كما أنه يغفل «المبشرات» التي تحدثت عن انتصار الإسلام وانتشار دعوته ، واتساع دولته ، وعودة خلافته ، وهي جملة من الأحاديث الصحاح .

والقارئ المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ يتبين له أنه لم يكن غافلاً عن مستقبل دعوته ، بل كان يفكر فيه ، ويخطط له ، في حدود ما هيأ الله له من فرص ، وما آتاه من أدوات وأسباب .

ويكفي أن نقرأ عن جهده ونشاطه ﷺ في مواسم الحج التي

obeikandl.com

تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب ، وكيف كان ﷺ يعرض دعوته عليهم ، ويطلب نصرتهم ، ويعدهم بوراثة ممالك كسرى وقيصر ، ليُعلم إلى أي أفق كان يرنو بصره ﷺ .

وكان الرسول الكريم وهو في مكة وأتباعه قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس مؤمناً بمبدأين أساسيين :

الأول : أن هذا الواقع لا بد أن يزول ، لأنه يحمل عوامل زواله ، وأن البديل له هو الإسلام ، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق ، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبّانها .

لما اشتد الأذى بالصحابة في مكة وخصوصاً المستضعفين منهم جاء خبّاب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه ويستنجد به ، وهو متوسد رداءه في ظل الكعبة . فقال بلسانه ولسان المعذَّبين من أمثاله : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ! و اللهِ ليتمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخافُ إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون»[1] .

يؤيد ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لسراقة بن مالك في رحلة الهجرة ، وهو مطارَد مباح الدم : «كيف بك إذا ألبسك الله سواري كسرى »؟

وتبشيره لأصحابه بفتح فارس والروم ، وهو محاصَر يحفر الخندق !

---

(١) رواه البخاري .

الثاني : أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سنن الله في رعاية الأسباب ، وإعداد المستطاع من العُدَّة ، وإزاحة العوائق من الطريق ، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلَهية ، فما يعجز عنه البَشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة[1] .

* *

● **الخلفاء الراشدون والمستقبل :**

ومَن تأمل في سيرة الصحابة ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين ، استبان له من وقائع شتّى اهتمامهم بالمستقبل وتفكيرهم فيه ، واحتياطهم له . وهذا ماحفزهم إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، لَمّا استحرَّ القتل بالقرَّاء في معركة اليمامة من حروب الرِّدّة ، حتى قيل إن سبع مئة منهم قد استُشْهِدوا في ذلك اليوم ، فأشار عمر على أبي بكر بذلك الجمع ، مخافة أن يموت أشياخ القُرَّاء ، كأُبَيٍّ وابن مسعود وزيد بن ثابت . وتردد أبو بكر في أول الأمر ، ثم شرح الله صدره لتنفيذ ما اقترحه عمر ، رضي الله عنهما . وتم تكليف زيد بن ثابت بالقيام بهذا الأمر . وكان من توفيق الله تعالى ، ومن أسباب حفظ القرآن وصيانته مما أصاب الكتب السماوية السابقة . تحقيقاً لوعد الله تعالى : ﴿**إنا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ وإنَّا له لَحافِظونَ**﴾ [الحجر : ٩] .

ونحو ذلك ما فعله الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه في جمع الناس على مصحف واحد ، يُقرأ بحرف واحد ، وإلغاء كل المصاحف الشخصية التي كتبها بعض الصحابة مشتملة على تعليقات وتفسيرات .

---

(١) راجع ما ذكرناه عن التخطيط للهجرة في حديثنا عن «عصر العلم والتكنولوجيا» .

وإنما فعل عثمان ذلك ، لأن الناس اختلفوا في القراءات ، بسبب تفرق الصحابة في البلدان ، واشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبثهم ، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان حين اجتمعوا في غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما رُوي لها ، فاختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض ، والبراءة منه ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ، فلما قدم إلى المدينة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : في ماذا ؟ قال : في كتاب الله . ووصف له ما رأى وما سمع ، وقال : إني أخشى عليهم أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى ! وقد شاور عثمان الصحابة بما فيهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فوافقوا على رأيه في أن يجتمع الناس على قراءة فإنهم إذا اختلفوا اليوم كان مَنْ بعدهم أشد اختلافاً[1] .

ومن أبرز دلائل الفكر المستقبلي عند الصحابة : موقف عمر من سواد العراق بعد فتحه ، ورفضه تقسيمه على الفاتحين ، وفقاً لما فهمه أكثرهم من آية سورة الأنفال : ﴿**واعلَموا أَنَّما غَنِمْتم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسولِ ولِذِي القُرْبَى واليَتامَى والمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ . .**﴾ [الأنفال : ٤١] .

وتوقف عمر ومعه من فقهاء الصحابة أمثال عليّ ومعاذ ، وكان تفكير عمر في الأمر منصبّاً على المستقبل ، مستقبل الأجيال المسلمة التي ينتظر أن تطرق أبواب الحياة : ماذا يبقى لتحقيق مطالبها وسد حاجاتها ، إذا استولى هذا الجيل المحظوظ على تلك الغنائم الهائلة ؟ وجيوش المسلمين وثغورهم ومصالحهم العامة ، من أين يُنفق عليها في المستقبل .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي : ١/٤٤، ٤٥ ، المقدمة .

لقد قال عمر بصراحة للصحابة المطالبين بالتوزيع : أتريدون أن يأتي آخر الناس ، وليس لهم شيء ؟ !

ولهذا رأى هو ومَن معه من الصحابة وقف رقبة الأرض لصالح أجيال الأمة ، على أن تبقى في يد أربابها ، ويُفرض عليها خراج مناسب لمصلحة بيت المال أو الخزانة الإسلامية العامة . وعلّل عمر ذلك بقوله : إني أردت أمراً يسع أول الناس وآخرهم . وكذلك قال معاذ[1] .

وأعانه على إقناعهم ما فهمه من آيات توزيع الفيء في سورة الحشر ، حيث أشركت فيه الجيل الحاضر من المهاجرين والأنصار ، ثم ألحقت بهم : ﴿**والذِينَ جاءوا مِن بَعدِهم يقولونَ ربَّنا اغْفرْ لَنا ولإِخْوانِنا الذِينَ سبَقونا بالإِيمانِ**﴾ [الحشر : ١٠] .

وبهذا بيَّن عمر ومَن معه أن الأمة متكافلة في سائر أزمانها ، كما هي متكافلة في سائر أقطارها ، تكافل زماني ، وتكافل مكاني ؛ لا يجوز لجيل أن يأكل وحده حق الأجيال اللاحقة .

* * *

(١) انظر : الخراج لأبي يوسف ص ٢٣ ، ٢٤ ، طبع السلفية ، والأموال لأبي عبيد ص٥٨ ، ٥٩ ، وانظر : كتابنا «فقه الزكاة» : ١/ ٤٠٩ ، ٤١٠ ، نشر مكتبة وهبة .

أصناف الناس أمام الماضي والمستقبل

والناس أمام الماضي والمستقبل أوالتراث والعصر ثلاثة أصناف : طرفان وواسطة :

١- الموغلون في الماضوية :

الصنف الأول : ماضويُّون تراثيون موغلون في الماضوية ، لا يكادون يرنون إلى الأمام ، أو المستقبل ، أو يتعمّقون في الحاضر ، فهم مشدودون أبداً إلى الخلف ، سجنوا أنفسهم داخل قضبان التراث ، ولا يتصورون العيش في الحاضر أو المستقبل ، إلا باجترار التراث كله ، بجزئياته وتفاصيله ، وخصوصاً فيما يتعلق بالتشريع والتوجيه والسلوك . وهم ينسبون موقفهم إلى الدين!

من سمات هؤلاء :

(أ) أنهم يضفون لوناً من القداسة على التراث ، فهو حق كله ، خير كله ، صواب كله ، مع أن الدراسة المنصفة للتراث تؤكد أنه لا يخلو من الباطل في الاعتقادات ، والشرور في الأفعال ، والخطأ في الآراء والأقوال .

وقد كان في عصر النبوة منافقون حدّثنا عنهم القرآن في عدد من سوره ، وكان فيه مَن أقيم عليه الحدّ ، ومَن ذمّه الله ورسوله .

وكان في عصر الصحابة من الفتن ما هو معلوم ، وإن كنا لا نجحد فضل هذا العصر في عمومه وجملته .

(ب) وهم يسرفون في ردّ كل جديد إلى قديم من التراث ، وإن لم يقم على ذلك برهان ، فنظرية «التطوّر» توجد عند علماء المسلمين ، مع الاختلاف البيّن بين ما ذهب إليه المسلمون ، وما ذهب إليه «دارون» ومَن تبعه . والطب الحديث يوجد عند الرازي وابن سينا ، وعلم الاجتماع المعاصر لا يخرج عن ابن خلدون ، إلى

غير ذلك من المبالغات التي يدفع إليها حماسٌ يضيع الحقائق .

ونحو هذا مَن يتمحّل لرد النظريات العلمية الحديثة إلى آيات من القرآن الكريم ، مع أن القرآن الكريم في غنىً عن هذا التمحّل .

(جـ) وهم يعتبرون كل زمن شرّاً مما قبله ، إلى أن تقوم الساعة ، بناءً على ما فهموه من ظواهر بعض الأحاديث ، التي يفهمونها فهماً حرفيّاً ، رغم مخالفتها لنصوص أخرى ، وللواقع التاريخي أيضاً[1] .

(د) ومنهم مَن يتعلق بالصورة والشكل عند السَّلَف ، لا بالروح والجوهر ، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب ، وبالآداب الظاهرة ، لا بالعبادات الباطنة ، فأكبر همّه تقصير الثوب ، وإطالة اللحية ، وعدم الأخذ منها ، وإحفاء الشارب ، والأكل باليد ، لا بالملعقة والشوكة ، والأخذ بالأقوال الجزئية للسَّلَف ، لا بمنهج الاجتهاد والتفكير عندهم .

وهؤلاء قِلّة قليلة ، وإن كان لهم وجود في الساحة العربية والإسلامية ، وآفتهم قصور فهمهم للدين وللعصر جميعاً ، فقد جمدوا عند أفكار معيّنة في الدين ، وأقوال محدَّدة في التراث ، انتهت بهم إلى الوقوف عند صورة الدين لا حقيقته ، وشكله لا جوهره ، وتمسّكوا بظواهر النصوص وحرفيتها ، لا بمقاصدها وأهدافها .

حتى سألني بعض الطلاب والطالبات في جامعة قطر عن أناس ينتقلون من جنوب قطر إلى شمالها ، للدعوة وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس ، ولكنهم أبوا إلا أن يذهبوا مشياً على أقدامهم ، وأمتعتهم على ظهر جمل يصحبونه في رحلتهم ، ولما سئلوا : لماذا لم تركبوا السيارات وهي متاحة ؟ قالوا : نحن نتبع السنّة في الدعوة ! !

---

(١) مثل حديث : «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه» . انظر : تعليقنا على هذا الحديث في كتابي «كيف نتعامل مع السُّنّة النبوية» ص٨٧- ٩٠ .

هل هذا متصور ؟ !

وهذا يذكرني بما حكاه لي بعض الإخوة في بعض البلاد العربية أن داعية من هذا النوع وقف يوماً يقول : الحمد لله الذي سخّر لنا الكفار من الإفرنج وغيرهم ، ويقدّمون لنا العلم والتكنولوجيا لنتفرّغ نحن لعبادة الله تعالى وطاعته ! !

وجهل المسكين أن تخلّفنا في مضمار العلم والتكنولوجيا ، يعتبر جريمة في نظر الإسلام ، لأننا لم نعدّ ما استطعنا من قوَّة ، ولم نقم بحقّ فرض الكفاية ، في إتقان كل علم به قوام الدين أو الدنيا ، كما قرر علماؤنا من قبل ، وغدونا في كثير من الأمور عالة على غيرنا من هؤلاء «الكفار» ! فأضعنا واجبات كثيرة ، لأنّا أضعنا وسائلها ومقدّماتها اللازمة لها ، والتي قال فيها علماؤنا : «ما لا يتم الواجب إلا به واجب» .

إن هذا الصنف من «الماضويين» أو «التراثيين» غائبون عن العصر وإنجازاته وتياراته ، وكأنما خرجوا لتوّهم من مقابر دفنوا فيها منذ خمسة قرون ، مع أن بعضهم قد يكون خريجاً في أحدث الجامعات العصرية ، وربما كان مهندساً أو طبيباً ، أو صيدلياً ، أو محاسباً ، أو محامياً ، أو غير ذلك مما تفرزه جامعات عصرنا فهو عصري الشهادة ، ماضوي الفكر .

* *

٢- المغرقون في المستقبلية :

الصنف الثاني : مستقبليّون مغرقون في المستقبليَّة ، لا يكادون يلتفتون إلى الوراء ، إنّما ينظرون أبداً إلى الأمام . يرون أن الإنسان يتطوّر دائماً إلى ما هو أحسن وأمثل ، فلماذا العودة إلى الخلف ، أي إلى الماضي أو التراث ، أو التاريخ ؟

نحن أبناء اليوم والغد ، لا أبناء الأمس . فلماذا التشبث بالأمس ، واعتباره أفضل من اليوم ؟ ولماذا التمسك بالتراث إلى حدّ التقديس ؟

أهمّ ما لدى الإنسان عند هؤلاء هو المخيِّلة ، إذ كان أهمّ ما في الإنسان عند الأولين هو الذاكرة .

كأنما يريدون أن يلغوا الماضي من الزمن ، و(أمس) من اللغة ، والفعل الماضي من الكلام ، ويحذفوا الوراء من الجهة ، والذاكرة من الإنسان .

التراث عنهم متّهم ، والماضي لديهم مبغّض ، والسَّلَف في نظرهم مجرّحون ، وتاريخ الأمة ظلمات بعضها فوق بعض .

هم مع التراث كما قال الشاعر في جيران سوء له :

إن يسمعوا الخير أخفَوْهُ، وإن سمعوا شرّاً أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا!

ما في هذا التاريخ أو هذا التراث من حسنات وإنجازات علميّة وحضارية وأخلاقية ، منسيٌّ أو مسكوت عنه ، وما فيه من فتن وانحرافات ، لا يخلو منها تاريخ بَشر ، ينظرون إليه من خلال «مكروسكوب» يضخّم الصغير حتى يجعله كبيراً .

لقد رأينا مِن هؤلاء مَن يهاجم «السَّلَف الصالح» ويتّهم الخلفية العادل عمر بن العزيز ، بتخريب الدولة الإسلامية ، لجهله بشؤون الإدارة والسياسة !(١) .

رأينا من هؤلاء مَن سخر مِن كل مَن يكشف عن إنجاز علمي أو حضاري حقيقي غير متمحّل سبق به العرب والمسلمون ، ومَن يردد مع المستشرقين المتحاملين : أن المسلمين لم يكن لهم فضل ولا

(١) هذا ما كتبه حسين أحمد أمين في بعض الصحف القاهرية ، انظر : ردنا عليه في كتابنا «فتاوى معاصرة» : ٢/٧١٥- ٧٢٤ ، تحت عنوان : خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز هل كان جاهلاً بالسياسة ؟

أصالة في علم ولا عمل ولا فنّ ولا أدب .

فعلومهم وفلسفتهم منقولة عن اليونان ، وفقههم متأثر بتشريع الرومان ، ونظمهم مقتبسة من الفُرْس ، وحضارتهم خليط مركّب مأخوذ من الأمم السابقة .

والإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه محسوب على هذا الماضي ، أو هذا التراث ، فهو لا يصلح لهذا العصر ، وليس كما يقول المشايخ والدعاة : إنه صالح لكل زمان ومكان . وكيف تصحّ هذه المقولة مع تغير الزمان ، واختلاف المكان ، وتطوّر الحياة والإنسان ؟

على الإسلام أن يخلي مكانه لأفكار العصر و«أيديولوجيّات» العصر ، وإن كان لا بدّ من بقائه ، فعليه أن يبقى محصوراً في حنايا الضمائر ، بوصفه علاقة بين الإنسان وربّه ، فإن سُمِح له بالخروج منها ، فليكن في حدود دور العبادة «الموجّهة» التي لا تتدخل في أمور الحياة ، وسياسة الأمة ، إذ لا سياسة في الدين ، ولا دين في السياسة!

ومِن هؤلاء مَن يسمح للإسلام بدخول العصر ، بشرط أن تُعاد قراءته ، ويُعاد تفسيره من جديد ، دون تمييز بين الثوابت والمتغيرات ، أو بين منطقة القطعيّات ومنطقة الظنيّات . فهم يرون أن «يتعصرن» الإسلام ، لا أن يسلم العصر ، ويطالبون الإسلام أن يتطوّر ، ولا يطالبون التطوّر أن يسلم .

* *

٣- دعاة الوسطية :

والصنف الثالث : هم الذين سلموا من إفراط الأوّلين وتفريط الآخرين ، وهداهم الله إلى الموقف الوسط ، وهم الذين قال فيهم

الإمام عليّ كرَّم الله وجهه : «عليكم بالنمط الأوسط الذي يلحق به التالي ، ويرجع إليه الغالي» .

إنهم يجتهدون أن يقيموا الموازين القسط بين عناصر الزمن كله : الماضي والحاضر والمستقبل ، فهم يعتبرون بالماضي ، ويعايشون الحاضر ، ويستشرفون المستقبل .

يُفرِّقون بين الإسلام والتراث ، فالإسلام كلمة الله العليا ، وأمره الذي لا يُعصى ، والتراث صنع البَشر ، ونتاج عقولهم وإرادتهم ، حتى التراث الديني نفسه ، هو عمل العقل الإسلامي .

يعلمون أن من الخطأ البيِّن : اعتبار الإسلام ماضياً ، فالإسلام هو الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً .

إنهم لا يرفضون القديم لمجرد قدمه ، ولا يعشقون الحديث لمجرد حداثته ؛ بل يستمسكون بكل قديم نافع ، ويرحبون بكل حديث صالح .

إنهم ينكرون على الفريق الأول جمودهم على كل قديم ، وعلى الفريق الآخر انفتاحهم على كل حديث . وفي كل من القديم والحديث خير وشر ، وصواب وخطأ ، وصلاح وفساد . والموقف المقبول شرعاً وعقلاً هو القصد إلى اجتناب الشر والخطأ والفساد ، وتحري الوصول إلى الخير والصواب والصلاح ، بغضّ النظر عن قِدَمِ ذلك أو حداثته .

ثم إن القِدَم والحداثة أمران نسبيان ، فرُبَّ حديث عند قوم يُعتبر أمراً قديماً كل القدم عند غيرهم ، على أن الحديث لا يبقى حديثاً أبد الدهر ، فقديم اليوم كان حديث الأمس ، وحديث اليوم سيصبح قديم الغد .

وقد كان من قبلنا على عكس السائد اليوم يعظّمون القديم ، ولا يحتفلون بالحديث ، ويرون الأقدمين أعلى مكانة من المحدَثين ،

والأوائل أفضل أبداً من الأواخر . فقال أحد الشعراء ناقداً هذا التوجه[1] :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويرى للأوائل التقديما
إن هذا القديم كان حديثاً ... وسيمسي هذا الحديث قديما

إن هذا الفريق من دعاة الوسطية يرحبون بالتطور والتجديد في الحياة والمجتمع ، بل في الدين نفسه ، الذي نوّه رسوله بـ «المجددين» فيه ، الذين يبعثهم الله في كل قرن لهذه الأمة : «ليجددوا لها دينها»[2] .

فهم يقاومون الجمود البليد ، ويحاربون التقليد ، ويدعون إلى الاجتهاد ، ويؤمنون بتطور العلم والفكر . إنهم يؤمنون أن الثبات والتغير ظاهرتان متجاورتان من ظواهر الكون والحياة والإنسان . فكل منها فيه الثابت والمتغير ، وإن كان الملاحظ أن الجوهر ثابت ، والأعراض هي المتغيرة أبداً .

كما أنهم يعلمون أن التطور أو التغير ليس دائماً إلى الأحسن والأمثل ، فكثيراً ما يكون من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ . وهذا ما يشهد به التاريخ ، وما يصدقه الواقع . فالتطور لا يقتصر على الجانب العلمي والمعرفي ، الذي يتقدم باستمرار ، بل يشمل جوانب الإيمان والقيم والسلوك أيضاً .

لهذا يرحبون بالتطور إذا كان إلى ما هو أفضل ، وينكرونه إذا

---

(١) انظر : مقدمة «تاج العروس في شرح القاموس» للزبيدي .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في معرفة السنن عن أبي هريرة وصححه غير واحد . انظر : بحثنا حول هذا الحديث في كتابنا «من أجل صحوة راشدة» فصل : «تجديد الدين في ضوء السُّنّة» .

كان في جهة الهبوط والانحدار .

كما أنهم يميزون بين الثوابت والمتغيرات ، بين ما يقبل التجديد والاجتهاد والتطور وما لا يقبله .

فهم يدعون إلى الثبات في المقاصد والغايات ، وإلى المرونة والتطور في الوسائل والآلات .

الثبات في الأصول والكليات ، والمرونة والتطور في الفروع والجزئيات . الثبات في دائرة القطعيات والمحكمات ، والمرونة والتطور في محيط الظنّيات والمتشابهات .

الثبات في حقائق الدين ، والمرونة والتطور في أمور الدنيا[1] .

هذا الفريق من دعاة الوسطية الإسلامية يؤمنون بالعقيدة أساساً ، وبالعقل نبراساً ، وبالشريعة منهاجاً ، وبالأخلاق سياجاً ، وبالاجتهاد مذهباً ، وبالتجديد مشرباً ، وبالعلم مركباً ، وبالانفتاح على العالَم دون ذوبان ، وبالتمسك بالأصول دون جمود على كل ما كان .

يؤمنون بما نقله العلامة ابن عبد البر النمري : ليس هناك كلمة أضرّ بالعلم والعلماء من قول القائل : «ما ترك الأول للآخر شيئاً» ![2] ، فكم ترك الأول للآخر ، وكم في الإمكان أبدع مما كان . وهو ما شهدت به العصور والأزمان . ويرددون معه قوله : «وليس هناك كلمة أحضّ على طلب العلم من قول الإمام عليّ كرَّم الله وجهه في خطبة خطبها : واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرئ ما يحسنه»[3] .

(١) انظر : فصل «الجمع بين الثبات والمرونة» من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام» .

(٢) انظر : «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر : ٩٩/١ ، طبع المنيرية .

(٣) انظر : «جامع بيان العلم وفضله» نفس الجزء والصفحة .

ولئن قيل ذلك في شأن الفرد ، إنه ليصدق في شأن الأمم . فقيمة كل أمة ما تحسنه . فليس المهم أن تعمل لكن المهم أن تحسن إذا عملت ؛ فإن الله كتب الإحسان على كل شيء .

إن تيار الوسطية لا يغفل المستقبل كما لا ينسى الماضي . وفي مكتبة الإسلاميين اليوم أكثر من كتاب يتحدث عن المستقبل من منظور الإسلام[1] .

وقد أقام بعض الإسلاميين مركزاً لدراسات المستقبل الإسلامي مقره «لندن» . وهو الذي أقام ندوته الشهيرة في الجزائر (سنة ١٩٩٠) عن قضايا المستقبل الإسلامي .

وهذا التقسيم الثلاثي واقعي ومنطقي ، وترجيح فريق الوسط هو الذي يدعو إليه العقلاء ، أياً كانت ثقافتهم . ولا بأس أن أستعير هنا كلمات الفيلسوف الأديب الدكتور زكي نجيب محمود في التعبير عن هذا المعنى ذاته في كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» قال : إن الثقافة العربية الحديثة إذ واجهت العصر بمقولاتها ، لم تجد مقولاتها تلك مُعَدَّة كل الإعداد لتلقّي مادة العصر ، فانقسم رجال الثقافات عندنا ثلاثة مذاهب :

مذهب وجد الصيد نافراً من القفص ، لكنه لم يزل به حتى طوّعه بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين ، وفي رحاب هذا المذهب تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر في تاريخنا الحديث : محمد عبده ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم

(١) مثل كتاب الشيخ محمد الغزالي عن «مستقبل الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري» ، وكتاب د . محمد عمارة «الإسلام والمستقبل» ، وكتاب د . الدجاني عن «المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة» ، وكتابنا «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة» وغيرها .

وغيرهم ، فهؤلاء جميعاً على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم لم يرفضوا العصر ، لكنهم حاولوا أن يصوغوه في قوالب الثقافة العربية الأصلية ، مع تفاوت بينهم في درجة النجاح ، ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين .

ومذهب آخر وجد الصيد نافراً من القفص فاستغنى عن الصيد ، واحتفظ بالقفص يضع فيه من كائناته المألوفة ما يجده حاضراً بين يديه ، وفي هذا المذهب تقع جماعة لا حصر لعددها ممن ملؤوا أوعيتهم من كتب التراث ، وغضوا أنظارهم غضّاً عن العصر بكل ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية ، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين .

ومذهب ثالث وجد الصيد نافراً من القفص فحطم القفص ، وجرى مع الصيد حيث جرى ، وهؤلاء قِلّة قليلة لا تجد بأساً في أن نمحو صفحتنا محواً ، لنملأها بثقافة العصر وحده كما هي معروفة في مصادرها ، بغير تحريف ولا تعديل .

فمن ذلك ترى جماعتين من الجماعات الثلاث ، هما اللتان تصدّتا للعصر : إحداهما بتعديله ليلائم قالبنا الموروث ، والأخرى بغير تعديل فيه ، ملقية في اليمّ القالب الموروث . وأما الجماعة الثالثة ، فقد لاذت بالهروب في حصونها ، فلا مواجهة بينها وبين العصر ، ومن ثَمَّ فلنا أن نسقطها من حسابنا ، برغم كثرة عددها ، وبرغم أنها هي التي ظفرت بتأييد الجماهير .

وكذلك نستطيع أن نسقط من حسابنا في موضوعنا هذا تلك القِلّة القليلة التي ، وإن تكن قد شاركت العصر في مشكلاته الفكرية وقضاياه ، إلا أنها قد شاركته كما يشاركه رجال الفكر من

أصحاب الحضارة الغربية نفسها ، فكأن هذه الجماعة «المستغرِبة» تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية ، وكل ما لها من انتماء إلى الثقافة العربية الحديثة هو أنها تكتب ما تكتبه باللغة العربية ، ولعل أهم ما قامت به في صنيعها ذاك ، هو أنها عرضت على الأمة العربية ثقافة الغرب ، لا عن طريق الترجمة المباشرة ، بل عن طريق تمثلها لتلك الثقافة ثم عرضها بأسلوب حي فيه روحها وشخصيتها ، فلئن كانت الفئة الكبيرة التي لاذت بالماضي بغير تعديل ، قد خرجت من ميدان المواجهة بالفرار ، فإن هذه الفئة الصغيرة التي دمجت نفسها في حاضر الغرب كما هو ، قد خرجت هي الأخرى من ميدان المواجهة بالذوبان في عالَم غير عالَمهم .

وتبقى بين أيدينا جماعة واحدة ، هي التي اضطلعت بالمواجهة الثقافية بكل ما في هذه الكلمة من أبعاد ، وأعني تلك الجماعة التي تستقطب جمهور المثقفين ، والتي جعلت همها أن تسوق ثقافة العصر في مقولات الثقافة العربية كما عرفها التاريخ[1] .

إن نظرتنا لا تخالف نظرة المفكر الكبير من ناحية المبدأ ، ولكن قد تخالفه من ناحيتين :

١- من ناحية التطبيق ، فقد يعتبر هو طه حسين في جماعة الوسط ، ونحن نراه أقرب إلى طرف الاستغراب ، وإن كان في أواخر حياته قد عدّل كثيراً من موقفه .

وقد يرى هو مثل رشيد رضا وحسن البنا ومحمد عبد الله دراز ، وأمثالهم من جماعة التراث ، مع أننا نسلكهم في دعاة الوسطية .

---

(١) انظر : كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» ص ١٥ ، ١٦ ، طبع دار الشروق ، بيروت .

٢- من ناحية التعبير ، فقد اعتبر العصر هو «الصيد» الذي يُطلَب ويُنشد ، والتراث أو الماضي مجرد «قفص» أي وعاء مهمته الاحتواء والحجز ، فليس له أي قدرة على العطاء .

وأحسب أن الإنصاف يقتضي أن نعطي للتراث حقه ، كما فعلنا مع العصر . على أن الدكتور وجُلّ مَن نشؤوا في أحضان الثقافة الغربية لم يميزوا بين الإسلام والتراث ، أي بين ما هو وحي إلَهي وما هو فكر إنساني . فالأصل أن الإسلام عقائده وشعائره وشرائعه وقيمه وأخلاقياته الثابتة بقرآنه وسُنّته ، أعلى من التراث ، فهو الميزان الذي يحتكم إليه المختلفون ، والنور الذي يهتدي به المتحيرون .

* * *

● دعوى التصادم بين التفكير المستقبلي والتفكير الديني

ومن الكتاب العلمانيين مَن يزعم أن التفكير الديني بطبيعته يصطدم بالتفكير المستقبلي ، لما يحمل في طياته من خطر يهدد قيماً كثيرة مرتكزة على أساس ديني : فحين يفكر الإنسان المعاصر في المستقبل يتجه ذهنه في الأغلب إلى تلك الكشوف العلمية والتكنولوجية التي يوسع بها نطاق معرفته بنفسه ، وبالعالَم ، وسيطرته عليهما ، وطابعها هو الاتجاه إلى تأكيد قدرة الإنسان وانتقاله التدريجي من مرحلة قبول الطبيعة على ما هي عليه ، إلى مرحلة تغييرها وتشكيلها وفقاً لأغراضه ، مما يؤدي به إلى منافسة الطبيعة ، وإحداث تحول

جذري في مسارها .

مثل هذا الجهد العلمي والتكنولوجي يتخذ في عالَمنا المعاصر في نظر هؤلاء العلمانيين طابعاً يؤدّي إلى التصادم مع كثير من القيم الدينية .

فالعلم يسير الآن في أول الطريق المؤدي إلى كشوف تقف على مدخل تلك المنطقة المحظورة التي كانت من قبل وقفاً على التفسير الديني وحده . والتفكير المستقبلي في العلم يؤدي مباشرة إلى توقع التحكم في المخ البَشري ومختلف القدرات الإنسانية وإلى أطفال الأنابيب ، وتخليق الحياة الصناعية ، والتحكم في جنس المواليد ، بل وفي صفاتهم الجسمية والنفسية والعقلية . هناك إذن قُوىً مخيفة توشك على الانطلاق من داخل مختبرات العلماء ، وهي قوىً لا تقتصر على التحكم في الطبيعة المادية ، بل تسعى إلى التحكم في الطبيعة البَشرية بدورها . وكل اتجاه إلى التفكير في مستقبل هذه التطورات ، يثير بالضرورة حساسيات ومخاوف لا حصر لها . فالمستقبل يحمل في طيَّاته احتمالات مزعجة ، تؤدي إلى زعزعة قيم ظلت مستقرة ومريحة زمناً طويلاً[1] .

هذا ماقاله أحدهم عن التفكير الديني وموقفه من احتمالات المستقبل ، وهو تحامل واضح على التفكير الديني وحده ، على حين نجد كثيرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين اليوم ، في بلاد التقدم العلمي والتكنولوجي نفسها ، يتوجسون خيفة من هوس

(١) انظر : «الصحوة في ميزان العقل» للدكتور فؤاد زكريا ص ٧٢ .

التكنولوجيا ، وجنون البيولوجيا ، وغلو الإنسان في الدأب على تغيير خلق الله في الكون ، وفطرة الله في الإنسان . وهو ما يتنادى الكثيرون من العقلاء في العالَم اليوم لمحاولة تفاديه ، قبل أن يقع ، والتخفيف من ويلات وشرور ما قد وقع بالفعل .

وقد أطلق بعض المهتمين صيحة : «يا سكان الأرض اتحدوا»[1] أي لتفادي الخطر الواقع والمتوقع على هذا الكوكب وأحيائه .

ويؤكد الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه «تجديد الفكر العربي» أنه «مؤمن بأنه لا مندوحة لنا عن أن نزيل التعارض القائم اليوم في أركان الدنيا جميعاً ، بين العلم الذي يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة ، وقيمة الإنسان التي تنهار بوثبات كوثبات الشياطين»[2] .

والدكتور قسطنطين زريق وهو رجل مسيحي مصنّف في القوميين التقدميين يتجه هذا الاتجاه في كتابه «نحن والمستقبل» فيتحدث عن «مشكلات التقدم» الذي أخذت البلاد المتقدمة تحس بما جرّ عليها من مشكلات متفاقمة ، وأضرار وأخطاء متضخمة ، وما يتعرضون له من مساوئ وشرور . وقام فريق من رجال الفكر وأرباب المسؤولية ينبهون ويحذّرون ، ويدعون إلى السعي الجاد السريع لتدارك الخطر ، و«كبح انطلاق التقدم» كي لا يؤدي في النهاية إلى

(١) عنوان كتاب للأستاذ عصام الدين حواس .

(٢) «تجديد الفكر العربي» ص ٢٨٧ ، طبع دار الشروق ، بيروت .

تخلخل الحضارة الإنسانية . ونقل عن العالِم الفرنسي «رينيه دومون» قوله : إن جميع الدلائل تدل على انهيار حضارتنا انهياراً تامّاً محتماً خلال القرن الحادي والعشرين إذا لم نصلح أساليبنا ! وأشار الدكتور زريق إلى ما قام به فريق «نادي روما» حول «المأزِق الذي تعانيه الإنسانية» نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي . وما أصدره الباحثون المتخصصون المكلّفون من تقرير يحمل نُذُراً تشاؤمية مرعبة ، أو على الأقل خليقة بإثارة القلق البليغ لما تكشف عنه من تحديات للبَشرية في حاضرها ومستقبلها القريب .

ومن أهم الاستنتاجات العامة التلخيصية التي توصلوا إليها قولهم : «إذا ظلت الاتجاهات الحاضرة في نمو سكان العالَم ، والتصنيع ، والتلويث ، وإنتاج الغذاء ، واستنزاف الموارد قائمة دون تعديل ، فإن الإنسانية ستبلغ حدود النمو على هذا الكوكب خلال المئة السنة المقبلة . وأرجح ما سيحصل هبوط فجائي وغير قابل للضبط في السكان وفي القدرة الصناعية»[1] .

ومثل هذه التحذيرات كثير ، يظهر في كتب وتقارير وبحوث شتّى ، في أكثر من بلد . وقد نشرت الصحف من عهد قريب خبراً عن وثيقة خطيرة وقّعها ١٥٠٠ عالِم ، منهم ٩٩ (تسعة وتسعون) من حملة جائزة «نوبل» ، تحذر من خطر استخدام العلم

(١) انظر : «نحن والمستقبل» ص ٤٨ ، ٤٩ ، ١٥١ ، طبع دار العلوم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى .

والتكنولوجيا دون ضوابط على البيئة والإنسان[1] .

* * *

(١) صحيفة «الشرق» القطرية يناير سنة ١٩٩٣م .

obeikandl.com

التعلق بالنموذج النبوي والصحابي

ويرى بعض دعاة العلمانية : أن فكرة الدين في حدّ ذاتها تقف حائلاً دون التحليق في المستقبل ، والتطلع إلى غد أفضل ، وتطوير الحياة إلى ما هو أحسن وأمثل . لأنها دائماً مشدودة إلى الوراء[1] ، إلى عصر نزول الوحي . واتصال السماء بالأرض ، وبروز الجيل الأول الذي تخرَّج في مدرسة النبوة ، وهو جيل الصحابة ، أفضل أجيال الأمة في نظر المتدينين ، لأنه الجيل القرآني الربَّاني المحمدي ، الذي لم يُعرف لرسول من الرسل مثله ، إيماناً وعلماً وعملاً وبذلاً وجهاداً في سبيل الله[2] ، وهو الذي جاء في مدحه الحديث : «خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»[3] .

* *

● حاجة البَشر إلى نموذج:

وهنا ألفت النظر إلى نقطتين مهمتين :

الأولى : أن البَشر لا يتعلمون من المبادئ النظرية وحدها ، ولكنهم في حاجة إلى نموذج بَشري تتجسد فيه المبادئ النظرية ، والقيم الروحية ، والمُثُل الأخلاقية المجرَّدة ، يكون لهم أُسوة ، يقتدون بها فيهتدون .

فالبَشر ليسوا فلاسفة تجريديين ، يتبعون مبدءاً مثاليّاً يؤمنون به ، دون أن يروه محسّاً منظوراً ، أمامهم في الحياة الواقعية .

---

(١) انظر : «الصحوة في ميزان العقل» للدكتور فؤاد زكريا ، فصل «الأصالة والمعاصرة» ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) انظر : فصل «جيل قرآني فريد» من كتاب «معالم في الطريق» للشهيد سيد قطب .

(٣) الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وعمران بن حصين وغيرهما . انظر الحديثين برقم (١٦٤٦) ، و(١٦٤٧) من «اللؤلؤ والمرجان» .

لهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يضع أمام الناس نماذج بَشرية عملية ليقتدوا بها فيهتدوا ، تتمثّل في رسل الله عليهم الصلاة والسلام . واقتضت حكمته بالنسبة للرسالة الخاتمة أن يضع أمامهم نموذجين حيين ملموسين : نموذجاً فردياً ، ونموذجاً جَماعياً .

أما النموذج الذي وضعه الله تعالى أمام الفرد ، ليتمثله ويتخذه إماماً وأُسوة ، فهو محمد رسول الله ﷺ ، الذي جعل الله في سيرته مناراً لسلوك المؤمنين في شتّى جوانب الحياة .

يقول الله تعالى : ﴿**لَقَدْ كانَ لَكم في رسولِ اللهِ أُسوة حَسَنَةٌ لِّمَن كانَ يَرْجواْ اللهَ واليَومَ الآخِرَ وذكَرَ اللهَ كثيراً**﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ومن فضل الله على عبادة ، جعل في سيرته الجامعة متّسعاً لكل أنواع الاقتداء في مراحل الحياة المختلفة ، وجوانبها المتنوعة .

فالشاب والشيخ ، والعزب والمتزوج ، وذو الزوجة الواحدة وصاحب الأكثر من زوجة ، والأب والجد ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والمسالم والمحارب ، والمنتصر والمنكسر ، كُلٌّ يجد في حياته وسيرته مجالاً للقدوة(١) .

أما النموذج الآخر الذي جعله أُسوة للجماعة ، فهو جيل الصحابة في عصر النبوة والراشدين .

فهذا جيل هيّأه الله لتلقّي رسالة الإسلام مباشرة على يدي صاحبها المبعوث بها ، فاستقبلها بعقله وقلبه وإرادته ، وعاش فيها ، وعاشت فيه ، وسرت في كيانه العقلي والنفسي والعملي مسرى الدم في العروق ، فحسن فقهه لها ، وعمق إيمانه بها ، وزكت نفسه

(١) انظر : كتاب «الرسالة المحمدية» للعلامة سليمان الندوي بتقديم محبّ الدين الخطيب ، نشر المكتبة السَّلَفية .

بتعاليمها ، وصلح عمله في رحابها ، وصدق جهاده لنصرتها .

فكان هذا الجيل أفقه الناس لروح الإسلام ، وأصدقهم عملاً به ، وأسرعهم للبذل في سبيله ، وأكثرهم غيرة على حرماته ، وجهاداً لإعلاء كلمته .

وهو الذي حفظ لنا القرآن في الصدور وفي السطور ، وروى لنا السنن أقوالاً وأفعالاً وتقريرات ، ونشر دين الله في الآفاق ، بالأعمال قبل الأقوال ، وبالأخلاق قبل الأوراق . وربّى الشعوب على حبه والإيمان به ، والعمل بأحكامه . وهي مهمات عظمى ، انفرد بحملها دون سائر الأجيال ، وهي أعباء تنوء بها الجبال .

ولا غرو أن أثنى الله عليه في كتابه[1] ، وأثنى عليه الرسول في أحاديثه ، وأثنت عليه الأمة بعد ذلك في مأثوراتها ، وسجّل التاريخ فضله بأحرف من نور .

ومن هنا لا نعجب إذا رنا المسلم ببصره إلى النموذج الأول، المثل الأعلى للفرد، وهو الرسول الأكرم الذي بعثه الله ليتمّم مكارم الأخلاق، ووصفه بأنه: ﴿**لعلى خلُقٍ عظيمٍ**﴾ [القلم: ٤]، ليتخذ منه الأُسوة والهداية في حياته كلها. ورنت الجماعة ببصرها كذلك إلى الجيل الأول، الجيل الربّاني، القرآني، المحمّدي، ليتّخذ منه أُسوة في حسن فهم الدين، وصدق اليقين بما عند الله، والتناصح في الله، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر والمرحمة، والتعاون على البر والتقوى، والجهاد في سبيل الله، وتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة شخصية.

والنقطة الثانية : أن وضع هذا النموذج أو ذاك أمام الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة ، لا يعني أن نهتدي به في كل تفصيلات

---

(١) في أواخر سورة الأنفال (من الآية : ٧٢-٧٥) ، وفي سورة التوبة (من الآية : ٨٨-٨٩) ، وآخر سورة الفتح (الآية : ٢٩) ، وسورة الحشر (الآية : ٧- ٩) ، وغيرها من سور القرآن .

الحياة ، وجزئياتها المتغيرة ، وعلاقاتها المتطورة .

إنما الواجب والمشروع هو وضع النموذج نصب الأعين ، لتهتدي بهداه ، وتقتبس من سناه ، وتنهل من فضائله ، وتغترف من معين قيمه ومبادئه ، وتشرب روحه العالية المشرقة فيما تأخذ وما تدع .

وقد كان الصحابة عامة ، والراشدون خاصة ، أعظم الناس تأسيّاً واقتداءً برسول الله ﷺ ، وحرصاً على اتباع سُنّته ، واقتفاء سيرته ، ولم يمنعهم ذلك أن يبتكروا أشياء اقتضاها زمانهم وتطور حياتهم ، ومصلحة دينهم ودنياهم ، مثل جمع القرآن في مصحف ، وجمع الصحابة على حرف واحد من أحرف القراءة السبعة ، وتدوين الدواوين ، وتمصير الأمصار .

ونجد رجلاً مثل عمر بن الخطاب الرجل الثاني في الإسلام في نظر جمهور الأمة يستحدث أشياء لم تكن في عهد النبوة ، ولا في عهد أبي بكر ، وهي التي يعدونها «أوليات عمر» ، فهو أول مَن مصَّر الأمصار ، ودوّن الدواوين ، وكتب الناس على قبائلهم ، وفرض العطاء لكل مولود في الإسلام ، وأول مَن استقضى القضاة في الأمصار ، وأول مَن كتب التاريخ[1] .

بل نجد الصحابة خالفوا ما كان عليه الأمر في حياة النبي ﷺ ، عملاً بما تقتضيه السياسة الشرعية الحكيمة ، من جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، وتحقيق أكبر منفعة لأكبر عدد من الناس بقدر المستطاع .

ولهذا وقف عمر أرض السواد ولم يقسمها كما قسم النبي ﷺ خيبر ، والتقط عثمان ضوالّ الإبل ، ولم يكن يلتقطها النبي ﷺ وضمّن عليّ الصناع ، ولم يكونوا يضمّنون في عهد النبوة .

---

(١) انظر : «سيرة عمر بن الخطاب» لابن الجوزي ، نشر دار إحياة علوم الدين بدمشق . ص ٧٥- ٧٩ .

وهذا لا يعتبر في الحقيقة مخالفة ، بل فعل النبي عليه الصلاة والسلام ما هو أصلح للأمة في زمنه ، وفعل خلفاؤه الراشدون ما هو أصلح للأمة في زمنهم . كما قال ابن قدامة في تعليل فعل عمر في الأرض .

ولو كان الإسلام يكره الابتكار في شؤون الحياة ما رغّب الرسول الكريم في ذلك بقوله : «مَن سنّ في الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها ، وأجر مَن عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[1] .

وهذا هو المنهج الذي يريده الإسلام : الاتباع في أمور الدين ، والابتداع في أمور الدنيا . وكذلك كان أفضل أجيال المسلمين . فلمّا انحرف المسلمون عن النهج الصحيح للإسلام ، عكسوا المشروع ، وقلبوا الموضوع ، فابتدعوا في شؤون الدين وجمدوا في أمور الدنيا والحياة .

والمسلمون في خير قرون هذه الأمة ، وهي القرون الثلاثة الأولى — برغم يقينهم بفضل عصر النبوة والراشدين — لم يمنعهم ذلك أن يطوروا من علوم الدين ، ويخترعوا في علوم الدنيا ، فنشأت مدارس الفقه والتفسير والكلام ، ومدارس اللغة والنحو ، ودوّنت علوم الدين واللغة .

ثم انفتح المسلمون على العالَم من حولهم من الهنود والفُرْس واليونان ، فترجموا الكثير من كتبهم ومعارفهم إلى العربية ، وعكفوا عليها درساً وبحثاً ، فشرحوا غامضها ، وكمّلوا ناقصها ، وصوّبوا خاطئها ، ورتّبوا مشوشها ، وهذّبوا وحوّروا ، وأضافوا وغيّروا ، وابتكروا علوماً جديدة ، مثل الجبر والمقابلة ، وتركوا بصماتهم على القديم ، في الهندسة والطب ، والفيزياء والكيمياء ، وشتّى العلوم والرياضيات ، التي كانت تعتبر كلها شُعَباً من «الفلسفة» أو «الحكمة» .

بل اعتبروهم مبتكري المنهج العلمي التجريبي ، الذي يفخر به

---

(١) رواه مسلم في كتاب «الزكاة» من حديث جرير بن عبد الله برقم (١٠١٧) ، وكرره في كتاب «العلم» في صحيحه .

الغرب ، وينسبه إلى «روجر بيكُن» ، وسمّيه «فرنسيس بيكُن» ، وهما إنما اقتبساه من الحضارة العربية الإسلامية ، كما اعترف بذلك كثير من المنصفين من مؤرخي العلم ، أمثال «بريفولت» ، و«جوستاف لوبون» ، و«جورج سارتون» [1] .

المهم أنهم لم يعتبروا ذلك منافياً للاعتزاز بعصر «النموذج» الأول ، واتخاذه أُسوة ، بل اعتبروا ذلك من استلهام روحه ، والسير على هداه .

* *

● **استنباطات مردودة :**

ولقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» مقولة غريبة ، مضمونها : أن الإنسانية التي يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأن هذا التقدم إلى الأسوأ حتميّ لا رادّ له ، وفقاً لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام في طريق اليأس ، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون[2] .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالِم سنّي ولا معتزلي فيما أعلم في سنده أو متنه ، بل

---

(١) بريفولت في كتابه «بناء الإنسانية» ، ولوبون في كتابه «حضارة العرب» ، وسارتون في كتابه «تاريخ العلم» . وانظر : «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالَم الإسلامي» للدكتور علي سامي النشار ص٣٨٢- ٣٨٥ ط دار المعارف الثانية . و«شمس العرب تسطع على الغرب» .

(٢) انظر : «أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالَم العربي الحديث» ، للدكتور فهمي جدعان ص ٢١ وما بعدها ، طبع المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت .

ذكر ابن حجر والسيوطي وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر[1] .

فاعتبار هذا الحديث موضوعاً : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ، وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلالة طوال كل تلك العصور ، وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبه عليه من نتائج ، فهو غير مسلّم له . فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذي تلقّى عن رسول الله ﷺ ، وتربّى في حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ، ومن هَدْي رسول الله ، وحمَّله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره ، ثم الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكاتهم ، واقتفى آثارهم ، والجيل الثالث الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان . فرضي الله عنهم ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن «الإشعاع الروحي» لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة ، كان من القوة والعمق والسعة ، بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا في الجملة لا في التفصيل ، وفي أمر الدين والتقوى لا في أمر الحياة والعلم والعمران . فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة في الالتزام الديني .

وقد بشّر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يوماً ، وأن الرخاء سيبلغ مدىً لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتبّ حتى إن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن

(١) انظر : «نظم المتناثر في الحديث المتواتر» للكتاني ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

أرض العرب ستعود يوماً مروجاً وأنهاراً .

فهل يُعتبر هذا كله «تقدماً إلى الأسوأ» ؟ !

إن أي قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيراً من أمور الحياة ، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن في عصر النبوة ، وهم الذين أُمِرْنا أن نتبع سُنّتهم ، ونعضّ عليها بالنواجذ ، فهي امتداد للسُنّة النبوية المطهّرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين في عهد الأمويين والعباسيين ، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن في العصر النبوي ولا العصر الراشدي . أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على مشروعيتها .

ويكفي أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكرية في شتّى أنواع العلوم والآداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريق الترجمة ، ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ، والتقديم والتأخير ، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة ، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكاناً في حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفي هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الثمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة في مختلف مجالاتها ، وشتّى فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّ أيديهم ، أو تقيّد أرجلهم ، أو تشل تفكيرهم ، محتّمة عليهم «التقدم إلى الأسوأ» ! !

صحيح أن الأجيال المسلمة التي صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن في شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) وهو أمر اعترف به الجميع ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمي ، وتقدمهم الحضاري ، وجهادهم الأخلاقي . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالي نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانياً أعلى ، وبذلك يجمعون بين الحسنتين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضاري المادي ، وحسنة السمو الروحي ، والترقي الإيماني والخُلقي .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوه بصبرها وثباتها في عصور الفتن والأزمات التي يُمتحن فيها أهل الإيمان ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! [قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : « بل منكم »][1] .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق ، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام ، ومُلْك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث في كل مئة سنة مَن يُجدِّد للأمة دينها . وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، في صلاح الحال إذا فسد ، وقوة الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .

* *

(١) الحديث رواه أبو داود في سننه كتاب «الملاحم» برقم (٤٣٤١) ، والترمذي في التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجة في الفتن (٤٠١٤) كلهم عن أبي ثعلبة الخشني .

● **استمرار الخير في سائر أجيال الأمة :**

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعني أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقي الفتات .

بل الحق الذي لا ريب أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة ، واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة في كل العصور : ﴿**فاسْتبِقوا الخَيراتِ إلى اللهِ مَرجِعُكم جميعاً**﴾ [المائدة : ٤٨] . وكم ترك الأول للآخر ، وكم في الإمكان أبدع مما كان . وفي الحديث الشريف : «مثل أمتي كالمطر ، لا يُدرَى أوله خير أم آخره»(١) .

يقرر الشرَّاح هنا : أنه كما لا يُحكم بوجود النفع في بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يُحكم بوجود الخيرية في بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفي هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة من طبقات الأمة لها خاصيّة وفضيلة توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها في النشوء والنماء لا يمكن إنكارها . فإن الأوَّلين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة

(١) رواه الترمذي عن أنس في أبواب الأمثال برقم (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبراني عن عمار بن ياسر ، قال الهيثمي : ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن بن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر وهما ثقتان ، وفي عبيد كلام لايضر : (٦٨/١٠) ، ورواه البزار والطبراني في الأوسط عن عمران بن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا : (١٠/ ٦٨) ، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عمار (الإحسان/ ٧٢٢٦) .

الرسول بالإجابة والإيمان ، والآخرين آمنوا بالغيب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا مَن قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد ، فالمتأخرون بذلوا وسعهم في التقرير والتأكيد ، فكلٌّ ذنبهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها بالخير ، وأنها ملتحمة بعضها ببعض ، مرصوصة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التي لا يُدرى أين طرفاها[1] .

والمسلمون في كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثاً نبويّاً : «الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة» ، ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحَّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن «لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله»[2] ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم : ﴿**وَمِمَّن خَلَقنا أُمَّةٌ يَهدونَ بِالحَقِّ وبِهِ يَعْدِلونَ**﴾ [الأعراف : ١٨١] .

كما صحَّت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته وتنتشر دعوته ، وتتسع دولته[3] .

* *

(١) انظر : « مرقاة المفاتيح ، شرح مشكاة المصابيح» للعلامة علي القاري : ٦٥٨/٥ ، وقد نقلناه بتصرف .

(٢) صح من حديث معاوية والمغيرة بن شعبة ، وثوبان وعقبة بن عامر وجابر وعمر وأبي هريرة وعمران بن حصين وقرة بن إياس ، رضي الله عنهم . انظر : صحيح الجامع الصغير . الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) .

(٣) انظر في ذلك الأحاديث الصحيحة للألباني الجزء الأول الأحاديث رقم (١-٦) ، نشر المكتب الإسلامي ، بيروت .

- **سنن وقواعد مطردة :**

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادئ راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسنناً مطردة ، من محكمات القرآن والسُنَّة ، يحتكم إليها الجميع ، منها :

١- أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، في الدنيا قبل الآخرة . كما قال تعالى : ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجرَ مَن أَحسَنَ عمَلاً**﴾ [الكهف : ٣٠] ، ﴿**والذِينَ يُمَسِّكونَ بِالكِتابِ وأَقاموا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضيعُ أَجرَ المُصْلِحينَ**﴾ [الأعراف : ١٧٠] .

٢- أن الجهاد في الله ، سواء أكان جهاداً روحيّاً أم ماديّاً ، لا يهدره الله أبداً : ﴿**والذِينَ جاهَدوا فينا لَنَهدِيَنَّهم سُبُلَنا وإِنَّ اللهَ لَمعَ المُحْسِنينَ**﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

٣- أن مَن نَصَرَ اللهَ نصره الله ، ومكّن له في الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات ، والصالحات : كل ما تصلح به الحياة روحيّاً وماديّاً ، وما يصلح به الإنسان فرديّاً وجماعيّاً . يقول تعالى : ﴿**ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَويٌّ عزيزٌ * الذينَ إن مَكَّنَّاهم في الأَرضِ أَقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَروا بالمَعروفِ ونَهَوا عَنِ المُنكَرِ ولِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمورِ**﴾ [الحج : ٤٠-٤١] ، ﴿**وعَدَ اللهُ الذينَ آمَنوا منكم وعمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأَرضِ كما اسْتَخلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهم ولَيُمَكِّنَنَّ لَهم دينَهم الذي ارْتَضَى لَهم ولَيُبَدِّلَنَّهم مِّن بَعدِ خوفِهم أَمْناً يَعْبُدونَني لا يُشْرِكونَ بِي شَيْئاً**﴾ [النور : ٥٥] .

* * *

٤ـ العناية بحقوق الإنسان

ومن سمات عصرنا البارزة : أنه عصر حقوق الإنسان ، فلا معاصرة لنا إذا لم نعترف بهذه الحقوق في دساتيرنا ، ونرعها في مؤسساتنا ، ونزرع احترامها في عقول أبنائنا ، وضمائر شعوبنا وحُكّامنا . وبخاصة حقوق المستضعفين والمسحوقين .

حقوق الإنسان الفرد لدى المجتمع .

حقوق الشعوب لدى الحُكّام .

حقوق الفقراء لدى الأغنياء .

حقوق الأُجراء لدى الملاّك .

حقوق العمال لدى أرباب العمل .

حقوق النساء لدى الرجال .

حقوق الأطفال لدى الآباء .

إلى غير ذلك من الحقوق ، التي تحفظ للإنسان آدميته ، وتصون حُرمته وكرامته ، وتؤمنه على ممتلكاته وخصوصياته ، وتحميه من مخالب الأقوياء أن تفترسه ، ومن أقدامهم الغليظة أن تدوسه .

فهل تضيق أصالتنا الإسلامية والعربية ذرعاً بهذه الحقوق ؟ أم ترحب بها وتنشرح بها صدراً ؟

الواقع أن هنا بحوثاً ودراسات جادة أثبتت بمنهج علمي صحيح أن هذه الحقوق في جملتها ليست من مستحدثات العصر ، ولا من مبتكرات الغرب ، وأن الإسلام سبق بإقرارها ، بل بالدعوة إليها والمحافظة عليها ، واعتبار الفرد والمجتمع والدولة حُرَّاساً على رعايتها ، بوصفها واجبات شرعية ، يُثاب مَن فعلها ، ويُعاقَب مَن تركها .

لا أملك في دراستي هذه أن أتحدث عن هذه الحقوق وموقف الإسلام منها ، بل أحيل على بعض الكتب التي صدرت في هذه القضية ، مثل :

حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي للدكتور محمد فتحي عثمان .

حقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالي .

حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي .

الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور القطب محمد طبلية .

الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور محمد عمارة .

وأكتفي هنا بعرض خلاصة مما انتهى إليه بحث الدكتور فتحي عثمان ، في كتابه الموثق بالأدلة الشرعية والتارخية من مصادرها الأصيلة . وفيها بيَّن أن تقرير حقوق الإنسان في الإسلام ، استوعب الاتجاهات الوضعية كلها قديماً وحديثاً وتفوَّق عليها ، مؤكداً ما يلي :

(أ) أن تقرير حقوق الإنسان في الإسلام قد شمل الحقوق الشخصية الذاتية والفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية ، وأكد الحريات العامة المتنوعة والمساواة .

(ب) وقد شمل تقرير حقوق الإنسان في الإسلام : الرجال والنساء اللائي هن «شقائق الرجال» كما ورد في الحديث ، والأطفال وهم «الذُّرِّيَّة الضعاف» الذين تمتعوا بالرعاية الشرعية من جانب كل المؤسسات القائمة في المجتمع الإسلامي : الأسرة والجماعة والدولة .

(جـ) كما شمل تقرير حقوق الإنسان في الإسلام : المسلمين وغير المسلمين في داخل دولة الإسلام وخارجها ، لأن «البر» في الإسلام إنساني عالَمي : ﴿**لا يَنهاكمُ اللهُ عَنِ الذينَ لم يُقَاتِلوكم في الدِّين ولم يُخرِجوكم مِّن دِيارِكم أَن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إِلَيْهم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة : ٨] .

(د) وحقوق الإنسان الشاملة في الإسلام هي في ضمان الفرد والجماعة والدولة على السواء ، لأن «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» هو واجب هؤلاء جميعاً : ﴿**والمُؤْمِنونَ والمُؤْمِناتُ بَعضُهم أَولِياءُ**

بَعض يَأْمُرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عَنِ المنكَرِ ويُقِيمونَ الصَّلاَةَ ويُؤْتونَ الزَّكَاةَ ويُطِيعونَ اللهَ ورَسولَهُ﴾ [التوبة : ٧١] .

(هـ) ومما يتجلى فيها تفوق حكم الله على وضع البَشر بالنسبة لتقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة : أن تقرير الحقوق في الإسلام يستند إلى «عقيدة الإيمان» وهي في عمقها وشمولها ودوامها لا تقارن بفكرة «القانون الطبيعي» أو «العدالة» أو «العقد الاجتماعي» أو «المذهب الفردي» . . إلخ . فـ «الله» مصدر تقرير الحقوق في دين الإسلام حقيقة ثابتة ، لا مجرد افتراض غامض ، والعقيدة في الله ترتكز إلىأصولها في الفكر والنفس ، ولها آثارها الواسعة الشاملة المستمرة في سلوك الفرد والجماعة والدولة .

(و) إن استناد تقرير الحق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وشريعته يؤدي إلى اقتران الحق بالواجب ، واقتران حق الفرد بحق الجماعة ، واقتران الحقوق الفكرية والسياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية . فكل ما هو حق للفرد هو واجب على غيره : سواء أكان الغير فرداً آخر أم الجماعة أم الدولة ، وهكذا لا مجال في المجتمع الإسلامي للأنانية والفردية ، ففي الحديث : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] ، «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[2] ، والقرآن يعبِّر في جلاء أن الأخوة ثمرة الإيمان الصحيح : ﴿إِنَّما المُؤْمِنونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحواْ بيْنَ أَخَوَيْكم﴾ [الحجرات : ١٠] .

(ز) بل إن تقرير حقوق الإنسان من قِبَل خالق الإنسان عَزَّ وَجَلَّ قد جعل إحقاق الحق واجباً علىصاحب الحق نفسه ، كما هو واجب على الذي عليه الحق ، فعلى صاحب الحق أن يطالب به ويحرص عليه ، ويناضل لأجله إن كان المانع مماطلاً أو باغياً أو

---

(١) متفق عليه عن أنس «اللؤلؤ والمرجان» (٢٨) .

(٢) متفق عليه عن جرير وابن عمر نفسه (٤٤ و٤٥) .

غاصباً . ففي الحديث : «مَن قُتلَ دون دمه فهو شهيد ، ومَن قُتِلَ دونَ عِرضه فهو شهيد ، ومَن قُتلَ دونَ مالِه فهو شهيد» (١) ، والمؤمنون أفراداً وجماعة ودولة في أي مكان مأمورون بمظاهرة صاحب الحق في طلبه والنضال لأجله : ﴿**فإن بَغَتْ إحْداهما على الأُخْرَى فقاتِلوا الّتي تَبْغِي حتى تفيءَ إلى أَمرِ اللهِ**﴾ [الحجرات : ٩] . والمؤمن مأمور ألا يفرط في حقوقه ، وبخاصة ما يمس إنسانيته وفكره واعتقاده ، حتى ولو اضطر إلى ترك الأرض التي عاش فيها وارتبط بها وألفها .

وهكذا تكون الهجرة أو «الالتجاء» بالاصطلاح القانوني المعاصر واجباً على المضطهد وليست حقّاً فحسب . كما أن من واجبه النضال والجهاد حيثما كان .

(ح) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شريعة الإسلام يعني إحقاق الحق ومقاومة البغي ، وهو التزام فذّ يفرضه الإسلام على الفرد والجماعة والدولة ، وهو واجب ديني شرعي يرتكز إلى العقيدة ، ويتغلغل إلى أعماق ضمير المؤمن ، وهو مقرون بالإيمان نفسه في عدد من آيات القرآن .

(ط) وإن الإسلام ليرتضي في مجال الاجتهاد والسياسة الشرعية كل ما يتوصل إليه التفكير والتجربة من إجراءات محكمة مخلصة ناجعة ، لضمان حقوق الإنسان ومنع المساس بها والاعتداء عليها . وفي حدود ما ورد من نصوص القرآن والسُنّة وما وقع في تاريخ الإسلام ، يمكن القول بوجود الضمانات التالية :

(ي) واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الملقى على عاتق

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٢) والترمذي (١٤٢١) وقال : حسن صحيح ، والنسائي (٤٠٤٩) وابن ماجه (٢٥٨٠) كلهم عن سعيد بن زيد .

الفرد والجماعة والدولة في الإسلام ، والذي يعني حراسة هؤلاء جميعاً للحق في مختلف صوره ومدافعتهم للبغي في مختلف صوره . ومن الوسائل التي عرفها تاريخ الإسلام في هذا الصدد وظيفة المحتسب بالنسبة للحكومة ، ودعوى الحسبة بالنسبة للأفراد ، ويمكن إدخال مراقبة رعاية حقوق الإنسان في نطاق كليهما .

(ك) كذلك كان من اختصاص والي المظالم وهو من اختصاص القاضي قبل ذلك وعندما لا يوجد مثل هذا المنصب النظر في تعدي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة . فهذا من لوازم النظر في المظالم الذي لا تقف على ظلامة متظلم ، فيكون لسيرة الولاة متصفحاً ، وعن أحوالهم مستكشفاً ، ليقويهم إن أنصفوا ، ويكفّهم إن عسفوا ، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا .

(ل) ولا مانع أن يقوم قضاء داخل الدولة الإسلامية على أعلى مستوىً لحماية حقوق الإنسان : ﴿**فإن تنازَعْتم في شَيْءٍ فَرُدّوه إلى اللهِ والرَّسولِ**﴾ [النساء : ٥٩] .

(م) ومن الإجراءات المعروفة في شريعة الإسلام وتاريخه «التحكيم» لمحاولة الإصلاح بين طرفي النزاع ، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلي أو العالَمي . والنص صريح في مجال الأسرة ولا مانع من تعديته إلى الجماعة داخل الدولة والجماعة الإنسانية الدولية ، يقول تعالى : ﴿**وإن خِفْتم شِقاقَ بَيْنِهما فابْعَثوا حَكَماً مِّن أَهْلِه وحَكَماً مِّن أَهْلِها إن يُرِيدَا إصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَينَهما**﴾ [النساء : ٣٥] .

(ن) والإسلام يشرع الجهاد لحماية حقوق الإنسان ، ومنع استضعافه ، والبغي على ذاته وحقوقه : ﴿**وما لَكم لا تُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ والمُستَضْعَفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ الذينَ يَقولونَ ربَّنا أخْرِجْنا مِن هذِه القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها**﴾ [النساء : ٧٥] .

(س) وحق الهجرة والالتجاء مكفول للفرد الفرار بنفسه وعقيدته وفكره من الاضطهاد ، وكل ما يمكن أن يستحدث من وسائل لحماية الحق وكفالة العدل ومقاومة البغي فإن الإسلام يرتضيها ويحتويها[1] .

هذه هي حقوق الإنسان في الإسلام، واضحة بيِّنة موثقة من أصوله ومصادره.

ولكن الذي نؤكده هنا : أن الإسلام يمتاز عن الفكر الغربي لما قرره من التوازن بين الحقوق والواجبات . فالإنسان في حضارة الغرب يركض أبداً وراء ما هو له ، ولا يهتم كثيراً بما هو عليه . والإنسان في الإسلام مشدود إلى ما يجب عليه أولاً ، الإنسان في نظر الغرب مطالبٌ سائل ، وفي نظر الإسلام مطالَب مسؤول . وفرق كبير بين الموقفين ، فرق بين مَن يقول : ماذا لي ؟ ومَن يقول : ماذا عليّ ؟ فالأول يدور حول حاجته ، والآخر يدور حول قيمة أخلاقية . ومن خلال أداء الواجبات تُرعى الحقوق ؛ إذ ما من حق لفرد أو جماعة إلا كان هو واجباً على غيره . فحقوق المحكومين إنما هي واجبات على الحُكَّام ، وحقوق المستأجرين إنما هي واجبات على المالكين . وحقوق الأولاد إنما هي واجبات على الوالدين ، وهكذا .

* * *

(١) انظر : « حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي» للدكتور فتحي عثمان ص ١٧٤- ١٩٢ ، طبع دار الشروق ، القاهرة .